صورة الليل عند شعراء المعلقات العشر

د.فريد عبد الظاهر سعيد
كلية التربية –جامعة أسيوط
فـــرع الـــــــوادي الجديد

تزخر المعلقات العشر الجاهليات بألوان كثيرة من اللوحات الوصفية، متناولة الطبيعة بكل عناصرها ومكوناتها؛ من ليل، ونهار، وصحراء، ونباتات، وحيوان.. وخلاف ذلك. ومن هذه العناصر، عنصر الليل لما فيه من ألفة، ووحشة، وتفاعل بين الشعراء، فمنهم من يذكر الليل مبرزاً همومه ووجدانه، وآلامه، وكذلك الظروف التي يعيشها، ومنهم من ذكر الليل بصورة عابرة وقد تناولت المعلقات هذه الصور المختلفة، وكان باعثها الظروف التي عاشها الشعراء الجاهليون، وألفوها.

وقد تحدث شعراء المعلقات الجاهليات العشر عن الليل، في قصائدهم، مبرزين جوانب الليل عندهم، فنظروا إليه، ونظموا أشعارهم، وأبرزوا براعتهم في ذلك، كل على حسب طريقته التي رآها مناسبة للظروف، والمواقف التي مرَّ بها. وقد اتخذ الجاهلي القديم الليل وسيلة له في حياته، وظروفه التي يعيشها من حب، وعشق وسمر، ولهو، وخوف، وترقب من عدو أو من حيوان وحشي، أو رهبة. إذاً فالليل يدخل في كل جانب من الجوانب السابقة، وهناك شعراء ذكروا الليل بصورة سريعة، ومنهم من لم يقف أمامه، ولم يذكره معتمداً على مواقف أخرى، واقفاً أمام لفظ المساء والصبح واليوم والنهار مع تنكيرها.

ومن الشعراء من يرى طول الليل؛ لأنه جلب له الهموم والآلام، ومنهم من يقرن الليل بالناقة في سفره وتحملها المشقات، هذا ما سنراه في صلب البحث.

الهدف من الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن صورة الليل عند شعراء المعلقات وإبراز طبيعة الشاعر وحالتهم ومواقفهم التي قد مروا بها ، فكل منهم يجعل الليل متنفساً، يبرز فيه همومه، وآلامه، لذا رأيت أن أقف أمام هذه الدراسة من خلال النصوص الشعرية، التي تبين لي فيها أن هناك صوراً مختلفة، يجمع بينها رباط نفسي بين الشاعر والطبيعة، مستوحياً أبعادها من الليل والزمن، وهذا التحول يكوّن عملية تفاعل نفسي بين الشاعر والليل، مفرجاً كربته وهمومه تجاه هذا الليل، فيبرز المشاعر والهموم والظروف التي ألمت به طوال اليوم، وما الليل إلا حصيلة يجمع فيها الشاعر مواقفه وهمومه و شكواه من خلال الشعر.

عناصر الموضوع:

١) الدراسات السابقة حول الموضوع.

٢) حجم المادة العلمية.

٣) علاقة الليل بالزمن.

٤) الليل عند شعراء المعلقات العشر.

٥) الثوابت والمتغيرات.

٦) الألفاظ والمصطلحات.

١- الدراسات السابقة حول الموضوع

هناك دراسات سابقة متنوعة من أهمها:

الدكتور سيد نوفل[١] جاءت دراسة الدكتور سيد نوفل حول شعر المهلل بن ربيعة، والذي ذكر الليل، بما فيه من سهر وقلق نتيجة مقتل كليب، فظل يرقب مصابيح السماء، وشكا طوله " كأن الليل ليس له نهار "، فيقول:

كأن كواكب الجَوْزاء عُودُ ... مُعَطَّفهُ عَلَىَ ربُع كَسيرِ
كأن الجَدْي فيِ مَثَناه رِبْقٍ ... أسيرٌ أو بمنزلة الأسير
كأن النَجْم إذْ ولىَ سُحَيراً ... فصالُ جُلنَ في يَومِ مَطِير
كواكبَها زَوَاحف لاَغِباتُ ... كأنَّ سَمَاهَا بِيَدي مُدير
كواكبُ ليلةِ طَاَلَت وغَمَّتُ ... فَهذَا الصبحُ راغمةً فَغُورى

وضح الدكتور سيد نوفل أن المتأمل لهذه الصورة والخاصة بذكر الليل أنها جاءت تبسيطاً لوصف امرئ القيس، وأنه اشترك معه في الباعث، وهو الضيق، وفي مواد الصورة الأساسية، وهي الإبل والتثبيت بالحبال، وجمود الكواكب، والمهلهل يعكس ذلك على نفسه نتيجة المواقف التي مرَّ بها، وهي مقتل أخيه كليب، لذا فقد زادت نغمة الحزن والألم والضيق بالليل.

وعدَّ الدكتور سيد نوفل الحالة الوصفية لامرئ القيس موازنة بالمهلهل أنها أبرع في التصوير، والإيجاز يضفي على الصورة جمالاً وإجلالاً، ويضفي الغموض في الصورة عنده عليها المزيد من الروعة.

---

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي ص٥١-٥٦.

عبد العظيم علي قناوي[1]

تناول في هذه الدراسة ثلاث صور، وهي للمهلهل بن ربيعة، وامرئ القيس، والنابغة الذبياني،وبيَّن في هذه الصورة الوصف عند كل منهم، فوقف كثيـــراً عنـــد المهلهل مبيناً المعين الذي نبعت منه شاعريته، وهي مقتل كليب، مبيناً أن المهلهـــل أول من وصف الليل بالطول، وهذا الوصف الذي جرى عليه الشعراء من بعـــده، وأن معانيه كانت مبتكرة جميلة، فيقول:

وَصارَ اللَيلُ مُشتَمِلاً عَلَينا   كَأَنَّ اللَيلَ لَيسَ لَهُ نَهارُ
وَبِتُّ أُراقِبُ الجَوزاءَ حَتّى   تَقارَبَ مِن أَوائِلِها انحِدارُ

وقال في قصيدة أخرى:

باتَ لَيلي بِالأَنعَمَينِ طَويلا   أَرقُبُ النَجمَ ساهِراً لَن يَزولا

وقف عبد العظيم قناوي عند الأبيات التي وقف عندها السيد نوفـــل، ولكـــن أضاف إليها الأبيات السابقة، وقال: إن المهلهل فتح الطريق لمن جاء بعـــده مـــن الشعراء، وعلى رأسهم امرؤ القيس، وأرث شعره ومعانيه.

إذن يمكن أن نقول:إن شاعرية الليل عند المهلهل يعتريها الحزن والـــضجر والألم؛ أما الصورة عند امرئ القيس ففيها العشق والهيام ، وعند النابغة يعتريهـــا الخوف.

---

(1) الوصف في الشعر الجاهلي: ص٢٥٢-٢٥٧، ١٩٤٩.

جليل رشيد فالح(1)

هذه الدراسة بعنوان الليل في الشعر الجاهلي، وتحدث فيها عن صور عدة لليل، منها ليلة الرهبة، وليل الألفة، والشاعر والطبيعة، وليل التمام، والليل والزمن، وليل الحزن.

وتناول بعض الشعراء الجاهليين، وتحدث عن مواقفهم تجاه كل نوع من أنواع الليل لدى هؤلاء الشعراء، سواء كانوا من شعراء المعلقات أمثال امرئ القيس، والأعشى، وعنترة، والنابغة الذبياني وغيرهم إذ وقف عند شاعرية المهلهل بن ربيعة، وعدي بن زيد العبادي، ومتمم بن نويرة، والمرقش، والحسين المري، ودريد بن الصمة، وفي هذه الدراسات بين أنه يجمع بينها رباط نفسي تؤلف بين أجزائها مشاعر ذاتية تستوحي أبعادها من الليل والزمن، فيتحول من خلال هذا التفاعل إلى ليل نفسي منفتح على دفقات تلك المشاعر الذاتية، والخلجات الوجدانية.

الدكتور محمد أبو موسى(2)

دارت دراسة الدكتور محمد أبو موسى حول وصف الليل في شعر النابغة الذبياني، وامرئ القيس، ووضح من خلال هذه الدراسة أن امرأ القيس أسبق من النابغة زماناً، وأن ليله هادر كموج البحر عنيف، يوحي بالرهبة، والقهر، والفزع، والإحاطة، والابتداع، وتجسدت صورة الليل عند النابغة بالانفعال والتوتر، ولكن الهم عنده لم يتجسد، ولم يجنح، ولم يحلق كثيراً، وإنما أحس فقط بأن الليل ليس بمنقض، وبقي الليل في منظوره ليلاً طويلاً، وهذا شعور يحس به كل مهموم.

---

(1) الوصف في الشعر الجاهلي، ص ١٩٤٩، ص ٢٥٢-٢٥٧. مجلة آداب الرافدين: كلية الآداب، الموصل، مج١، ع ٤، ١٩٧٢.

(2) قراءة في الأدب القديم.

الدكتور عبد الله التطاوي[1]

وضح الدكتور عبد الله التطاوي في دراسته الصراع بين الشاعر والليل، وهي دراسة عن المهلهل بين ربيعة، وحديثه عن معركة الشاعر في صراع غير متكافئ مع الليل، وإزاءه يبدو حائراً قلقاً في كل الأحوال، فلا تكاد حياته تخلو من الاضطراب سواء في حالة طوله، وما يظله به من هموم، أو حتى حالة قصره، وكأنما سلب كل أدواته تجاه مناقضته، إلى أن ينتقل بالمشهد الصراعي، فينتزع نفسه ليصورها بين الليل والنهار، وكأنه في تلك اللحظة فقط يهدأ نفسياً، إذ قد تحول من طرف مهزوم في الصراع إلى جمهور يشاهد المتصارعين، وقد جاء بياض الصبح ليشق سبيله عبر ظلام الليل، وكأنه يهزمه ويخذله، أو كأنه ينتقم للشاعر من كآبة ما رآه من هول الليل، الذي لفه كخصم عنيد لا يهزم.

كاصد ياسر الزيدي[2]

في هذه الدراسة تناول صاحبها الدلالة الإيحائية لطائفة من ألفاظ القرآن الكريم، وتناول في هذه الدراسة الليل، وتحدث عنه في الفكر العربي مبيناً أنه يمتد إلى عصور سابقة على القرآن الكريم بعدة قرون، وتحدّث عن العرب في تصورهم لليل قبل الإسلام أنه أسطوري غريب، وأنه وحش مفترس، وعدو قاتل، لا خلاص للإنسان من الوقوع في قبضته، وهو إحساس العربي قبل الإسلام مجسماً للهم والذعر، وهو مهما قصر فإنه طويل في نفس الشاعر.

---

(1) أشكال الصراع في القصيدة العربية في العصر الجاهلي ص٣٠٤-٣١١.

(2) مجلة الدراسات اللغوية، الصادرة عن مركز الملك فيصل للدراسات اللغوية مج ٢ في ١ محرم ربيع الأول ١٤٢١هـ بوفيه ٢٠٠٠ ص٩-٤٤.

الدكتور حسني عبد الجليل يوسف(١)

تناول في هذه الدراسة صورة الليل عند قدامى الشعراء تحت عنوان الشاعر والطبيعة الصامتة، فتحدث عن حاتم الطائي وصورة الليل عنده، وكذلك صورة الليل عند الأسودين يعفر النهشلى، ثم صورة الليل عند النابغة الذيباني، والمهلهل بن ربيعة، وامرئ القيس، والأعشي، وأوس بن حجر، ووقف عند هؤلاء الشعراء في وصف صورة الليل عندهم.

٢- حجم المادة العلمية.

جاءت المادة العلمية متنوعة في كتب التراث، مثل ما جاء في الدواوين الخاصة بالشعراء، ومنها ماجاء في كتب شروح المعلقات الست ، والسبع، والتسع و العشر، ..

وبلغت قرابة مائة وعشرين بيتاً من الشعر، موزعة على عدد الشعراء من حيث اهتمام كل شاعر منهم بصورة الليل.

منهج البحث:

من خلال دراستي لهذا الموضوع قمت باتباع المنهج التكاملي، وهذا المنهج يساعدنا على تفهم النزعات الشخصية لكل شاعر من شعراء المعلقات، ففيه اشارات الي التواجد النفسية والاجتماعية والجمالية "وهو منهج تستطيع أن تراه في طائفة من الدراسات ولاتي نراها تقوم أساساً على منهج منها يكون هو المحور الذي ندور حوله، ولكنها لا تومض الاستفادة من غيره من المناهج التي تتكامل بها جوانبها المختلفة"

(١) الأدب الجاهلي:قضايا، فنون، نصوص،مؤسسة المحتار للطباعة ص ١-١٤، ٢٠٠١، مصر.

إذ لا غنى عن أي منهج من مناهج الدراسات الادبية فالمنهج النفسي هو الذي يتسلل الى نفسية الشاعر ويحاول أن يرصد نزعتها ويفتش عن رغبتها، ويبرز بذلك طبيعة الشاعر وظروفه، وحياته.

أما المنهج الاجتماعي يفسر الظاهرة الأدبية بملابساتها الاجتماعية ويحاول أن يبحث عن تأثير المجتمع في حياة الشاعر وظروفه، أما المنهج الجمالي وهو الذي لا يهتم بالمجتمع ولا بالناحية النفسية ولكنه يركز على النص الأدبي ويحاول أن يستكشفه من خلال بنيته الفنية.

٣- علاقة الليل بالزمن

إذا كان هذا الموضوع يخص الليل وصورته في الشعر الجاهلي، فلا بد لنا من توضيح للفظ الليل الذي وصفه الشاعر العربي.

وأول ما يتبادر إلى الذهن إبراز مفهوم الليل والزمن وعلاقتهما عند القدامى، وللزمان والمكان علاقة مترابطة منذ القدم في ذهن الشعراء والفلاسفة، ولكن هناك خلاف بين الفلاسفة، والشعراء الجاهليين.

" والإغريق القدامى اعتبروا الزمن تهديداً متصلاً بحياتهم، وكانت العقائد الأورفية (نسبة إلى أورفيوس الذي ذكر أحكامها في أشعاره) تصور الزمن منذ القرن السادس قبل الميلاد في صورة كائن مقدس هو الذي خلق النار والهواء والماء، ويصف أرسطو طاليس الزمن بأحكم الحكماء؛ لأنه يكشف كل شيء، ويرى سولون أنه يظهر الحقيقة، أما سيمونيدس، فيجعل له أسناناً تمزق كل شيء إرباً إرباً، ويقول عنه ثيوجينيس أنه يكشف الغطاء عن كل شيء، ويرى يوربيدس أن

الزمن والد العدالة والبلسم الذي يداوي الجراح، ويذهب سوفوكليس إلى أنه يلد الأيام والليالي"(١).

" والمهم في هذا كله أن الزمان من وجهة نظر الفلاسفة مكون من دورات متعاقبة في الزمان المستمر ويبدو أن هذه الفكرة قد أتت إليهم من النظر في الكائنات الحيوانية، والإنسانية بوجه خاص، حين رأوا كلا منها يغطي مدة زمنية معينة محدودة بين الميلاد والموت"(٢).

" أما أرسطو فقد عرَّف الزمان بأنه مقدار الحركة من وجهة نظر المتقدم والمتأخر، وأن الزمان لا يوجد بدون الحركة، أو التغير بوجه عام، فإننا لا نشعر بتغير في نفسنا، أو حين لا ندرك، أي تغيّر، لا يبدو لنا أن ثمة زمن قد مرَّ، وهذا كان شعور هؤلاء الذين نقص عنهم الأسطورة أنهم كانوا نائمين في كهف سرديس عند الأبطال؛ وهم بهذا أنهم يربطون اللحظة السابقة على نومهم مباشرة باللحظة التي استيقظوا فيها ولا يجعلون منها في الواقع غير لحظة واحدة مستبعدة بين الفترة التي مرت بينهما؛ لأنها خالية من الإحساس، فإذا كنا إذن لا نشعر بالزمان إلا حين يكون ثمة تغير، فمن الواضح أن زماننا لا يقوم بدون الحركة"(٣).

أما الزمن عند الجاهلي فهو نتاج الظروف والبيئة ووسائل الحياة من قيم، وغيرها، بالإضافة إلى الترقب والانتظار لكافة ظروف الحياة التي يعيشها، هذا وإن دل على شيء فإنما يدل على النضج الفكري لدى العربي، وكذلك قدرته على التأمل في الكون والطبيعة.

---

(١) جلال الخياط: الشعر والزمن، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٥-١٣٩٥، ص١١ نقلا عن مجلة الفكر الكويتية مج ١ ع ع ص٣٠٧ وما بعدها، مقال بعنوان الزمن في التراجيديا الأغريقية، لدى روسيلي، عرض وتحليل د. محمود عواد حسين.

(٢) عبد الرحمن بدوي: الزمان اللاوجودي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٥، مصر، ص٤٣.

(٣) انظر السابق ص٥٣.

وقد ساعدت الطبيعة العربي على تحديد الزمان بما فيها من شمس تشرق وتغيب، ونجوم تتلألأ، وكواكب متعددة، وليل مظلم يعم ظلامه جميع الأنحاء، كل ذلك كان سبباً في أن للزمن معاني متعددة تختلف باختلاف وجهات النظر عنده، فاستطاع أن يكيف ظروفه وفق الحياة، فجاءت إبداعاته.

"وأسهم الرجل الجاهلي في رحلة البشرية عبر الأجيال المتتالية، وأدى دوره في تلك الرحلة بشكل مثير، وقدَّم لنا خلاصة عصره في أشعاره التي دلت على تفكير طويل مضن"(١).

إذن فالزمن عند الجاهلي مسألة مهمة عنده نتيجة ظروف البيئة التي يعيشها بخلاف الزمن عند الإغريق الذين لم يكن عندهم إلا ساكنا أو تهديداً لهم، أو تعاقباً مستمراً.

" والمهم بالنسبة لنا هنا أن الروح العربية السحرية قد أتت بنظرة في الزمان تخالف نظرة الروح اليونانية، وصوَّرت التاريخ بالتالي على نحو مخالف لتصوير اليونان إياه، وجعلت السيادة في أنات الزمان لا الحاضر، بل لأحد الآنين الآخرين، وهي قد مالت قطعاً إلى جعل السيادة للآن، المستقبل؛ لأن الخلاص سيكون فيه، ومسألة أهم الآنات إليها"(٢).

إذن كانت نظرة الجاهلي إلى الزمان نظرة شاملة، فكان يصور فيها مواقفه الخاصة والعامة مبرراً أثر الحياة العربية من تصورات المجتمع، وما يدور فيه من مواقف، وهذا على عبقرية العربي وتكيفه مع الواقع الذي يعيشه.

" إنَّ الخصائص التي تميز العبقرية الفردية ليست أجمل ما في تلك العبقرية وأعظمه لذاتها، بل لأنها تشمل في حناياها الحياة الجماعية لعصر أو هيئة، وترمز

(١) جلال الخياط: الشعر والزمن، ص١٨.

(٢) انظر عبد الرحمن بدوي: الزمن اللاوجودي، ص٨٤-٨٥.

لها؛ أي تمثلها، ومن ثم وجب علينا أن نحاول معرفة كل تلك الإنسانية التي أفصحت عن نفسها خلال كبار الكتاب، كل تلك التضاريس الفكرية أو العاطفية الإنسانية أو القومية التي يرشدوننا إلى اتجاهاتها وقممها"[1].

وعبقرية الجاهلي تتكامل مع كافة المواقف التي يواجهها ويتفاعل معها تفاعلاً كاملاً، نرى من خلالها إبداعاته وآرائه العامة والخاصة، وهذه العبقرية جعلته يبدع من خلال الزوايا المباشرة للحياة الجاهلية التي يعيشها.

"وإذن فقد بدأ الإنسان عمله بمحاكاة الطبيعة. وفي وسعنا أن نقول: إنه في الوقت نفسه قد أخذ يستغل الطبيعة، بل أخذ يجندها في خدمته، ويعد استكشافه للظواهر والأشياء المتماثلة أو المتشابهة أول خطوة خطاها في سبيل إدراك الطبيعة والعالم من حوله، إذ إنه تمكن بهذا من تصنيف الأشياء المتشابهة؛ وإدراك ما بينها من علاقات، فجعل على كل مجموعة متجانسة رمزاً... يستوي في هذه الكائنات الجامدة والكائنات الحية، وعلى هذا النحو تتحول الأشياء إلى رموز وأشياء ومفاهيم. وقد أصبحت معرفة الرمز أو الاسم تعنى امتلاك الشيء المرموز له أو المسمى بذلك الاسم والسيطرة عليه."[2].

وهذا التفاعل لم يكن من فراغ، بل نتيجة الظروف التي سادت في العصر الجاهلي، إذ جعلت الجاهلي يتلاءم معها، ويبرز موقفه وشجاعته وإبداعاته.

" والليل ظاهرة طبيعية ترتبط بالزمان والمكان، كما ترتبط ببعض المشاعر والأحاسيس كالرهبة، والخوف، ففي الليل تختفي المرئيات، ولا يظهر شيء غير القمر أو النجوم، فنراه يبعث على نوع من الخشوع والهيبة، وهنا يستيقظ الوجدان

---

(1) لانسون، مابيه: منهج في الأدب واللغة، دار العلم للملاسين، بيروت ط2، فبراير، 1982 ترجمة محمد مندور ص34.

(2) عز الدين اسماعيل: الفن والإنسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2003، ص19.

والفكر، ويغشى الإنسان شعور حاد بالدثور والتناهي، وينعكس هذا على وجدان الشاعر في صورة آلام، وأحزان وقلق وحيرة، فضلاً على أن الليل هو الوقت الذي يتناسب والتأمل والتفكير، كما يرتبط بنوع من الجدل بين الرجل والمرأة التي تبدو وكأنها رمزاً لأنا الشاعر العليا أو السفلى، فنرى بعض الشعراء يتحدثون مصورين هذا الجدل الذي يرتبط بالليل"(١).

" ويكاد شعراء المعلقات يلتفون حول الزمن كجزء من ذلك الحوار الأزلي الذي طرحه الإنسان منذ القدم، عاكساً من خلاله صور من صور تخاذله واستلامه وضعفه، وثمة فرق مؤكد بين صراعات الإنسان مع مجتمعه، وإيثارة الاغتراب عنه أحياناً، وبين سطوة الزمن عليه حين يحكم قبضته، فيعجز الإنسان عن مقاومتها، فلا نكاد نراه إزاءه إلا مستسلماً، معلناً انسحابه بعد صراع متهافت، مما تجد في عدة مواقف تجمعها بؤرة ذلك الاغتراب، من خلال ما يدور حوله من صور جزئية يتعلق جانب منها بمشهد الليل بصفة خاصة"(٢).

"إن هذه الخطرات الفلسفية أو الرؤيا التي قدمها الشعراء من خلال تأملاتهم، للكون والحياة، جاءت مرتبطة بتميز نوعي لهؤلاء الشعراء وإحساس بالذات، يفوق غيرهم من معاصريهم الذين تشدهم الحياة، وتستغرقهم أحداثها اليومية، فلا شك، أنه كلما كان الشعور بالشخصية أقوى وأوضح كان الإنسان أقدر على إدراك الموت،

(١) حسني عبد الجليل: الأدب الجاهلي قضايا، وفنون، ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٢١-٢٠٠١، ص٤٣٨.

(٢) خليفي: الموقف النفسي عند شعراء المعلقات، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، ط١، د.ت ص٢١.

وبالتالي على أن يكون الموت عنده مشكلة، ولهذا أيضاً لا يمكن أن يكون الموت مشكلة بالنسبة إلى من يكون ضعيف الشعور بالشخصية"[١].

وهذا الإحساس عبارة عن مغامرات ومواقف يمر بها الشاعر ويتفاعل معها، مرَّة نرى فيها الواقع، وأخرى نرى الخيال، وثالثة نرى الأحداث وتتابعها. كذلك صلات الشاعر بما حوله من طبيعة تجعله يصنع الخيال ويبدع فيه، فنرى صورة متكاملة، ولوحة فنية فيها إبداعاته. " فمع مشهد الليل قد يتوقف الشعر – بعامة – سعيداً هانئاً يخشى انقضاءه، بل لعله لا يريد هذا الانقضاء ولا يتمناه بحال، وربما حاول هو نفسه أن يتحكم في ليلة الغزلي، فقصره من واقع تجاربه، حتى إذا ما ظهر النهار، وكان الانقضاء الحتمي لليل كان اغترابه أمام النهار ذاته موقفاً أخيراً، وكان حزنه إزاء مرور ذلك الليل الذي أبى أن يظل في حدود توحده معه، ولكنها دورة الزمان التي حرمته استكمال المتعة المرهونة به، فلا يبقى له إزاءه إلا مجرد الاعتراف باغترابه، فهو إحدى صور الكآبة التي طلع عليها بها زمانه"[٢].

"واللافت للنظر أن هذه الرؤية الجاهلية للزمان تجاوزت حدود العصر وتغلغلت في وعي الجماعة، وفي وعي الشعراء بخاصة، كما ظلت النماذج الشعرية الجاهلية لهذا العصر مسيطرة على وعيهم، وهذا يكشف لنا أن نظر الشعراء موجه في المقام الأول لعالم الشعراء، يغترفون منه أطرهم الفنية والموضوعية، وهم حين ينطلقون من عالم الشعر القديم إلى عالمهم الجديد المتفوه لا يتخلصون تماماً من رؤية القدماء، ومن نظرتهم للوجود والمجتمع"[٣].

---

(١) عبد الرحمن بدوي: الموت والعبقرية، دار القلم بيروت، ص ٨، نقلاً عن حسني عبد الجليل، الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، ص٣١.

(٢) مي خليف: الموقف النفسي عند شعراء المعلقات، ص ٢١،٢٢.

(٣) حسني عبد الجليل يوسف: الانسان والزمان، في الشعر الجاهلي، ص١٥٠.

إذن لهذه صورة عن مفهوم الليل وعلاقتها بالزمن عند شعراء المعلقات، وهي صورة مرتبطة بالزمان وكذلك المكان نتيجة الظروف التي مر بها الجاهليون في بيئتهم من مواقف، ومن طبيعة وغيرها.

٢- الليل عند شعراء المعلقات العشر

تتنوع ملامح الليل عند شعراء المعلقات كل منهم حسب رؤيته وموقفه الذي يعانيه، كما تتباين صوره عندهم نتيجة تنوع ومشاعر الشعراء وظروفهم، بالإضافة إلى المواقف التي مرّوا بها، وقد قوى صدق الشاعر في وصف ما يراه أمامه.

"وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون"(١).

" لقد عاش الشاعر القديم وأثّر عالم الاضطراب على عالم السكون، عالم الحركة على الراحة والإراحة. كان عبر أفكار قاسية وتوهم خشن. كان " نابي المضجع " في أغلب الأحيان، ومن كان نابي المضجع فليس أمامه إلا الحركة. عذاب هنا، وعذاب هناك. وكانت الحركة مقرونة أحياناً بما يشبه مطاردة أشباح غامضة، ولكنها فيما تبدو لا تروعه كثيراً؛ فقد ألفها وتعلم أن لا خير في تجاهلها أو الشكوى من وجودها. كان يتلذذ بالحركة متوهماً أنه يركب الريح ويركب ظهور المهالك. لقد صنع من المشكلة دواء، لقد صادق المشكلة نفسها التي يشكو منها"(٢).

وهناك نقف أمام شعراء المعلقات مبرزين مواقفهم تجاه الليل كل منهم حسب رؤيته التي صوّرها لنا من خلال دواوينهم الشعرية، وكل منهم تناول تشبيهات معينة وفق إحساسه.

---

(١) محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، مطبعة المدني، مصر، ص ٢٤ تحقيق محمود شاكر.

(٢)مصطفى ناصف:صوت الشاعر القديم،الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر ١٩٩٢،ص١٠٠.

" وعلى هذه الشاكلة من الحسية في التشبيه في الشعر الجاهلي جميعه، فالشاعر يستقي في أخيلته من العالم الحسي المترامي حوله. وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقوا النظر في أجزائه، وفصّلوا الحديث فيه تفصيلاً شديداً، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة، وإنما يصنع تمثالاً، فهو يستوفي ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة"(١).

وعند الحديث عن الشعراء الجاهلين لم نتبع ترتيب ابن سلام أو غيره ممن صنفوا شعراء المعلقات، بل سنقف عند من كانت له الأهمية في وصف الليل.

١) الليل والحب عن أمرئ القيس:

وصف امرؤ القيس الليل بصورة دقيقة، فاق أقرانه من الشعراء، مبرزاً حبه، وعشقه، وجدانه، وأحزانه بصورة مؤلمة حزينة على النفس، موضحاً فيها عدة لوحات وصور في تتابع وتناسق ومضمون، ومبرزاً إحساسه أيضاً، بأن الليل ثقيل يتجهم عليه دون أن يجد متنفساً.

" وامرؤ القيس شيخ الشعراء وزعيمهم المتَّبع وفحولهم يتحدثون أسلوبه ويأخذون أنفسهم بالطبع على غواره في متانة البيت وبلاغة المعاني، وتفنن الوصف، وهو أول من استوقف على الطلول وبكى وشبب في مستهل قصائده، وقد جاد كل الإجادة فيما نظمه من المعاني، وله الأوصاف البديعة للفرس والناقة، والسيل والليل والبرق، والقتال، وسائر الأغراض التي تعرف للبدو، وقد جرى كثيراً من أقواله مجرى المثل"(٢).

---

(١) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط٦، ص ٢٢٠.

(٢) يوسف رشيد عطا الله: ساروفيم فكتور: تاريخ الآداب العربية، ص ٤٤.

" فانظر إليه كيف جعل الليل جملاً له صدر، ثقيل تنحيه، بطيء تقضيه، وجعل له كلكلاً ينوء به وأعجازا كثيرة يردفها، وجعل له صلباً يمتد ويتطاول، ثم بالغ في طول الليل كأن نجومه شدَّت بحبال إلى جبال فكأنها لا تسير ولا تفور. وزاد على جلال هذه المعنى جمال اللفظ والأسلوب"[1].

إذ نرى تشبيهه الليل بموج البحر في تراكمه وشدة ظلمته، وتتابعه وسدوله وستوره، فيقول عن الليل:

وَلَيلٍ كَمَوجِ البَحرِ أَرخى سُدولَهُ عَلَيَّ بِأَنواعِ الهُمومِ لِيَبتَلي
فَقُلتُ لَهُ لَمّا تَمَطّى بِصُلبِهِ وَأَردَفَ أَعجازاً وَناءَ بِكَلكَلِ
أَلا أَيُّها اللَيلُ الطَويلُ أَلا انجَلي بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ
فَيا لَكَ مِن لَيلٍ كَأَنَّ نُجومَهُ بِكُلِّ مُغارِ الفَتلِ شُدَّت بِيَذبُلِ
كَأَنَّ الثُرَيّا عُلِّقَت في مَصامِها بِأَمراسِ كِتّانٍ إِلى صُمِّ جَندَلِ [2]

"شبه الليل بموج البحر في تراكمه، وشدة ظلمته وتتابعه، وسدوله وستوره، ويقول: اشتمل عليه الليل بأنواع الهموم ليختبر ما عنده من الصبر والجزع، وقوله: تمطى يعني امتد، وقوله: بجوزه أي بوسعه، ومعنى أردف إعجازاً: رجع على حين رجوت أي يكون قد ذهب، وقوله: ناء بكلكل أي نهض بصدره، وفي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى ناء بككل، وقوله: ألا انجل أي انكشف، ومعنى قوله: ما الإصباح

---

(1) محمد صالح سمك: أمير الشعر في العصر القديم، مطبعة العلوم ط ١، ١٣٥٠/ ١٩٣٢، مصر، ص ٧٩.

(2) أبو الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمري: أشعار الشعراء الستة الجاهلية: الشركه الوطنية للتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤م-١٣٩٤هـ، ص ٨١-٨٢، تصحيح الشيخ أمين أبو شنب. راجع ديوان امرئ القيس ص٤٠، وابن الأنباري:شرح المعلقات السبع الجاهليات، والخطيب التبريزي: شرح المعلقات العشر، وأبو جعفر النحاس: شرح المعلقات التسع الجاهليات، والزوزني شرح المعلقات السبع.

فيك بأمثل؛ أي أنا ابدًا مغموم في الليل وفي الصبح، والمغار الشديد الفتل، ويذبل اسم جبل، ويقول: كأن هذه النجوم شدت بشيء مفتول قوي إلى جانب هذا الجبل، فكأنها لا تسري، وإنما يصف طول الليل"(١).

" وأبيات امرئ القيس في وصف الليل أبيات اشتمل الإحسان عليها، ولاح الحذق فيها، وبان الطبع بها. فما فيها معاب إلا من جهة واحدة عند أمراء الكلام والحذاق بنقد الشعر وتمييزه"(٢).

وتتجلى عنده صورة العشق مبرزاً فيها إحساسه بوطأة الليل وهذه سمة العشاق؛ لأن العاشق يتمنى زوال الليل من أجل لقاء محبوبة. وسواد الليل وظلمته، و تباطؤه عليه جعله في صورة إنسان يائس حزين، مبيناً هذه اللوحة في عدة صور..

وأوضح ما في هذه اللوحة تنوُّع الصور، من هياج للبحر، ومن طول لليل وما فيه من وحشة وظلام.

" فإن الليل يشتمل على الشاعر بأنواع الهموم،فالهموم أنواع ودرجات، كما يشتمل البحر بموجه المتراكم، وتتابعه وشدة ظلماته على القرين، أو كما يجثم البعير على صاحبه، ويحكم فوقه صدره ووسطه،وإعجازه، ليخنق أنفاسه، ويكتم روح الحياة فيه. وفي التشبيه بموج البحر معان تتصل بفكرة التطهر.ومن هنا يكون إحساس الشاعر بهذا الليل على هذا النحو إحساساً بضغط نفس رهيب لا يذهب به إلا جلاء الصباح، وكان الشاعر يتلمس الخلاص من هذا الإحساس بالفرار من نفسه

---

(١) السابق، ص ٨٢.

(٢) المرزباني: الموشح، دار الفكر العربي، مصر، ص ٤١، تحقيق محمد على البجاوي.

إلى المجتمع"[1]. وهذه الحالة لم تكن إلا نتيجة للهم والظروف القاسية، وهي تظهر عند العاشق والمحب، فهو الذي يشكو همه لليل نتيجة الثقل والهموم.

وهي سمة عامة عند غالبية الشعراء الجاهليين، كل على حسب رؤيته للهم والموقف الذي مرَّ به، فكل منهم يتناول الهم بصورته التي يتوهمها في خياله ووجدانه، فيصف ذلك من وجهة نظره هو لا من وجهة نظر الآخرين.

" رب ليل كثيف كموج البحر، مد ستوره عليّ بأنواع الهموم ليختبرني أأصبر أم أجزع، فقلت له إذ طال أوله ووسطه وآخره؛ كالجمل نأى صدره، وتمدد صلبه وبعدت مآخيره: انكشف عن الصبح! ولكن ما الجدوى، والصبح ليس بأفضل منك، فهمومي دائمة ليل نهار؟! ويا عجباً لك من ليل ثقيل لا يتزحزح كأن نجومه شدت بحبال متينة إلى جبل، وكأن ثرياه في موقفها الثابت شدَّت بحبال كتانية إلى صخور صماء؛ وفي هذا الوصف يبدو وضحاً أن الشاعر يفلسف الطبيعة، ويصورها على غرارة، ويسكب فيها فكره، وفي إيضاح هذه الفلسفة استخدام وسائل الفن البياني أدق استخدم فبدأ الهم مجسماً في الألفاظ والمعاني"[2].

هنا يهدف الشاعر إلى تجسيد الظلمة الرهيبة إمعاناً في إشعار السامع بأن الهموم التي تجور بها جوانحه ليست من قبيل الهموم العابرة التّي يمكن أن يسلو عنها الإنسان بسرعة. وإنما هي هموم متراكمة، وترى ذهول الشاعر بالظلمة الكثيفة، والأمواج المتلاطمة، فهي لا تنتهي أبداً، وكذلك الليل عنده لا ينتهي.

وهذا يدل على الحالة النفسية القلقة عنده، وهما سمة عند كل عاشق فيها القلق والتوتر، والوحشة، والألم، وكل ذلك كان منعكسًا على نفسية الشاعر، وظروفه.

---

(1) انظر رفعت الشرقاوي: دروس ونصوص من قضايا الأدب الجاهلي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ط١، ١٩٧٩، ص ٢٦٠.

(2) سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي، مطبعة مصر، ١٩٤٥، ص ٣٨.

"معظم القراء يتصورون الشاعر مغاضباً. ولكن يبدو أن الليل ـ ورغم كل هذا الصخب ـ أمثل الأشياء. بعض الجفوة أمارة المحبة أو أمارة الرغبة في المعرفة الصعبة"(١).

"إن امرأ القيس يلمس وجدان كل إنسان، في كال زمان ومكان بهذه الصورة التي يرسمها لليل المهمومين. ولكن رؤيته لهذا الليل ليست رؤية كل المهمومين، إنها رؤية شاعر عبقري الفن ومرهف الحس، فسيح الخيال، تستغرق التجربة بأبعادها، فيرى ليل همه اختباراً قاسياً لصبره واحتماله، يحتويه بظلمته الكثيفة المتلاصقة، كأنها أمواج بحر خضم تتابع بلا نهاية، ويطول عليه فيشعر بثقله؛ وكأنه يجثم على صدره، ويكاد يزهق روحه، ثم يمضي في بطء، كأنه متثاقلاً، كأنه جمل ضخم ينهض في تكاسل، فيمد ظهره، ثم يرفع عجيزته، ويتجافى بصدره عن الأرض في حركة بطيئة"(٢).

إذن فحالة امرئ القيس وعبقريته في هذا الجانب يعتريها الخيال المرهف،والحس الوجداني وانجلاء ظلمة الليل أفضل؛ لأنه يرى من يحب، كما يجلب المرح والسرور عنده، وهذا يدل على وجدانه الخاص، وتجاربه التي مرَّ بها من لهو ومجون، وحب وخلاعة، فهو يمارس تجاربه الذاتية والوجدانية؛ لأننا نرى أنه يطغى على وصفه لليل الظلمة والسواد الحالك. ونرى من خلال ذلك أنه أقدر على وصف الليل من غيره من الشعراء وأن أبياته جاءت واضحة في تصوير الليل ووحشته وهوله، ورهبته، وهذه الصورة لم يستطع أحد إبرازها إلا امرأ القيس،

(١) مصطفى ناصف: صوت الشاعر القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٢، ص ٨٠.

(٢) صلاح الدين الهادي: أمراء الشعر في العصر الجاهلي، بيئاتهم، حياتهم، فنهم، مكتبة الشباب، مصر، د.ت، ص ٢٠٣.

ففيها الإبداع الحسي والنفسي، وفيها صورة الليل وتشبيهه بالجمل المتمطى، وإبراز صورة النجوم في هذا الليل وثبوتها في السماء كأنها مشدودة بأمراس كتان، وهنا نرى تضمينه بصورة كاملة من حيث المعنى، والتشبية، واكتمال للصورة عدده، فلم يصل أحد من أقرانه إلى وصف هذه الحالة، فهو جعلها مُنعكسة على نفسه، وظروفه، وحالته النفسية.

إذن فصورة الليل عند امرئ القيس تعد من نوع خاص، رأينا فيها الجوانب المتعددة، والصور الكاملة للطبيعة، والإحساس المرهف، والذوق الخاص، ففيه تجسيد، ومخاطبة لليل، وأن النجوم تؤنسه،إذن فالصورة متكاملة عنده في جوانبها كافة.

(٢) الليل والخوف والقلق عند النابغة الذبياني:

تتجلى صورة الليل عند النابغة الذبياني حسب رؤيته، وموافقة، وظروفه التي مرَّ بها، هذه الصورة ذاتيه، نابعة من وجدانه وإحساسه تجاه ما رآه نادماً على ما كان فيه من رغد في العيش عند النعمان بن المنذر، فهو يفكر في المستقبل، هل ما كان يجده عند النعمان سيجده عند الغساسنة، أضف إلى ذلك خوفه من بطش النعمان، مما جعله في قلق شديد.

ففي قصيدته إلى مدح فيها عمرو بن الحارث الغساني، حينما فرَّ من النعمان بن المنذر، يبرز الحالة النفسية له شاكيا الهم والقسوة والظروف التي ألمت به من كافة الجوانب، فيقول:

كليني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَــــةَ ناصِبِ ... ولَيــــلٍ أُقَاسِيه بَطِيءِ الكَواكب
تَطاول حتى قلتُ ليس بمنقَضٍ ... وليــــس الذي يرعى النجوم بآيب
وصَدْرٍ أراح الليل عازِبِ هَمِّه ... تَضَاعَفَ فيه الحزن من كل جانب[١]

(١) ديوان النابغة: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٦ تحقيق محمد الطاهر عاشور، ص ٤٣-٤٤.

" إن النابغة لا يعبر عن حالته النفسية عن طريق المعاني فحسب، وإنما ينقل الحالة الداخلية، بحاله خارجية قد تخالفها مظهراً، ولكنها تشابهها تمام الشبه في الشعور الذي تحس به النفس. ولعل ذلك أوفر دلالة على حقيقة التجربة الشعرية؛ لأنه ينقلها نقلاً إلى القارئ، وعلى الأخير أن يفسر المعنى حسب المؤثرات التي تأثر بها الشاعر[1].

فالحالة النفسية عند النابغة الذيباني يعتريها الهموم والقلق، والخوف، فهو ليست لدية المقدرة على الشجاعة والدفاع عن النفس، كما كانت عند امرئ القيس، فكان يتكسب من الشعر باتخاذه المديح حرفة.

فإذا كان النابغة قد صوَّر لنا قوة الليل في أبياته، وشكا همه الذي لا ينقضي، فإنما كان يصف الحالة النفسية، خاصة عند ما تأثر بموقف النعمان إزاءه بالنسبة له كالليل المفزع الرهيب الموحش الذي يطبق بظلمته، لا مفر، ولا مهرب من ظلمته، ووحشته، وهو منه بمثابة هذا الليل من المسافر سفرة طويلة لا يستطيع منه نجاه، لا عنه طولاً، فالمسافة بينها شاسعة، والغضب يلاحقه في كل مكان، ولن يهدأ له ضمير حتى يرضى النعمان عنه. وهي سمة تميز بها النابغة، وهي كثرة إلحاحه الشعري تجاه الملوك في عصره، وكانت لديه المقدرة في أن يقنع ممدوحه بذلك، فنال العفو.

" وقوله: ليل أقاسية، أي أقاسي الهم فيه، ولكنه خُيِّل أنه يقاسي الليل نفسه، فكأن الهم لعمومه وشموله شمل الليل كله، فصار الليل همّاً، وصار الشاعر لا يقاسي الهم، وإنما يقاسي الليل، وهذا أقوى في أداء المعنى، وقوله: ليس الذي يرعى النجوم بآيب تصوير خيالي فيه طرافة، فالنجوم سوائم ترعى، أي كأنها في

---

(1) خالد محمد الزواوي: الصورة الفنية عند النابغة الذبياني، دارة توبار للطباعة، مصر، ط١، ١٩٩٢، ص ١٧٢.

انتشارها على رفعة السماء، اشبهت السوائم المنتشرة في الكلأ إذا كان الذي يرعى النجوم السوائم يؤوب ويرجع فإن راعي هذه النجوم لا يؤوب ولا يرجع، فسوف تظل باقية ناعمة غير عابئة بهذا الشاعر المهموم الذي يرجو لها الرواح والذي ينظر إليها بعين مهمومة كئيبة"[١].

وهذا الهم ثقيل عند الشاعر، نتيجة القلق الشديد، والهم الملازم له، وهو لم يجد ملجأ يشكو إليه همه إلا الليل." وهو عندما شكا إلى ابنته ليل همه، كان عندئذ يتحدث بمعنى واضح مباشر، ولكن هذا المعنى هو نتيجة لتيار نفسي داخلي، التبست فيه ذات الشاعر، واختلطت بين الهم في الداخل، والليل في الخارج، وهو بطء ثواني الانتظار ومسير الكواكب، معبراً بذلك عن تجربة وجدانية، تجربة البؤس والأسى الذي توارى أو تقنع عبر هذه المظاهر الخارجية، وقوله: كليني لهمٍّ يؤدي معنى واضحاً ليس سوى نتيجة لتقمص الحالات النفسية وتعقيدها.

إن الليل الذي يذكره النابغة هو كسائر الليالي، أما الحالة الخاصة التي مرّ بها فهي من نفسه وذهولها. إذن فذلك الليل هو ليل نفسي، وليس ليلاً كالذي نعرفه؛ لأن الشاعر نقض الحالة الطبيعية للإنسان في هذا الوقت، ونما إليه حالة نفسية جعلته ليلاً يخالف سائر الليالي"[٢].

والأبيات فيها نمط معين تجاه نفسية الشاعر ومواقفه، وشكواه كانت لابنته أو لزوجته، وهما أقرب الناس إليه. " وكلها استعارات قوية متمكنة، تدل على فطنة الشاعر، وحدة فؤاده، وأن له من قوة الفطرة ما يقوم مقام الصنعة، وإذا كان المولدون برعوا في الاستعارة، وأتوا فيها بكل عجيب، فحسب هذا الشاعر الجاهلي

---

(١) انظر محمد أبو موسى: قراءة في الأدب القديم، دار الثقافة العربية، مصر، مصر، ط١، ١٩٧٨، ص٢٥٠.

(٢) خالد محمد الترددي: الصورة الفنية عند النابغة الذبياني، ص١٧٤-١٧٥.

أن تسلم له بعض تلك الاستعارات الجميلة فطرة وطبعاً. ولو سمع هذا الشاعر القرآن، وكان أموياً أو عباسيا لكان له في هذا الباب شأن أي شأن، وكفاه فخراً أنه من رواد هذا الضرب العسير من البيان، وأن ينطق به بوحي الفطرة، وأنه قد سلم له منه ما كان نموذجاً للشعراء من بعده"(١).

" وقوله: وصدر أراح الليل عازب همه، أي الليل رد همومه عليه التي بعدت وعذبت عنه، وكأنه كان قد نسيها، فصار الآن في زحام الهموم كلها يعانيها ويقاسيها، وهذا قوله تضاعف فيه الحزن من كل جانب، هذا هو ليل النابغة المتطاول"(٢).

" لقد استطال ذلك الليل حتى حسبه أنه لن ينتهي، وظن أنه مقيم، وأن الراعي الذي يرعى النجوم ويهديها إلى سواء السبيل، ويسوقها إلى غايتها من الأفق البعيد، ذهب إلى غير أوبة، وتركها دون أن ترجى له رجعة، وإذن فستبقى تلك النجوم صيرى لا تعرف لها قرار"(٣).

إن الحزن بارز عند النابغة، وهو متأصل فيه، ويتمنى زوال الليل وظلمته، ولكن زوال الليل ليس له أهمية، فهو يخاف ويخشى أن ينكل النعمان به، وعلى الرغم من همه انتقل إلى المدح.

" وقد بدأ النابغة مدحته بالجزء الذاتي المعروف في صدارته لهذا الموضوع من موضوعات الشعر، وهو يحكي فيه آلامه وأحزانه شاكياً ما كثر عليه من هموم زاد ثقلها مع إقبال الليل عليه، ويعبر من خلال الصورة عن حقيقة معاناته، الأمر

(١) عمر الدسوقي: النابغة الذبياني، دار الحمامي للطباعة، مصر، ط٢٦، ١٩٧٤-١٩٧٥، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) محمد أبو موسى: قراءة في الأدب القديم، ص ٢٥١.

(٣) عبد العظيم قناوي: الوصف في العصر الجاهلي، مكتبة مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط١، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص ٢٥٧.

الذي عرف عن النابغة في مقدمات مدائحه واعتذارياته التي تناغمت مع حالته النفسية إلى حد بعيد دفعه إلى تكرارها، لذا رسم صورة متعددة الأجزاء لتلك الأحزان والهموم. وإن جمعها في النهاية إطار واحد يحكمه الليل الرهيب الذي يعيشه في أبيات التقديم الثلاثة"(١).

في هذا الأبيات الحالة النفسية عنده غير مستقرة، فهو يخشى الهم الذي ألم به من كل جانب، وظل هذا الهم ملازماً له في طوال ليله، فهو يناجيه، لأنه أتعبه، وجلب له الهموم، وأنه تطاول وامتد.

أما في قصيدته والتي أولها:

عَوجوا فَحَيّوا لِنُعمِ دُمنَةَ الدارِ ... ماذا تُحَيّونَ مِن نُؤيٍ وَأَحجارِ(٢)

فيصف صورة كاملة للطبيعة، وما فيها من أمطار غزيرة، ولم يجد ملجأ ليحتمي فيه سوى شجرة أرطأه إلى أن جاء الصبح وانجلت ظلمه الليل، فيقول:

باتَت لَهُ لَيلَةٌ شَهباءُ تَسفَعُهُ ... بِحاصِبٍ ذاتِ إِشعانٍ وَأَمطارِ
وَباتَ ضَيفاً لِأَرطاةٍ وَأَلجَأَهُ ... مَعَ الظَلامِ إِلَيها وابِلٌ سارِ
حَتّى إِذا ما انجَلَت ظَلماءُ لَيلَتِهِ ... وَأَسفَرَ الصُبحُ عَنهُ أَيَّ إِسفارِ
أَهوى لَهُ قانِصٌ يَسعى بِأَكلُبِهِ ... عاري الأَشاجِعِ مِن قُنّاصِ أَنمارِ(٣)

" يبين أنه قضى ليلة ذات ريح باردة، وصقيع تضرب وجهه بما تسفيه من الحصى وأوراق الأشجار، وزخات المطر، فالتجأ إلى شجرة أرطأه، ليحتمي من المطر المنهمر ليلاً، وما كان الصبح أن ينجلي، حتى فوجئ بصياد أنماري عاري

(١) عبد الله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار اللواء للطباعة، مصر، ط٢، ١٩٩٩م، ص١٦٧.

(٢) هذه الأبيات من قصيدته الرائية، التي وصفها أبو زيد القرشي في كتابة جمهرة أشعار العرب، وقال: إن هذه القصيدة من المعلقات.

(٣) الديوان، تحقيق عاشور،ص١٥١.

الكتفين أو ظاهر عروق الكتف، يهوى عليه بكلابه، ذلك الأنماري محترف للصيد، يعيش معه، ويكسب، وقد سعى بكلابه بعد أن جوَّعها لتشتد في الافتراس، وتسرع في الجري وراء الطريدة، بعد أن قطع مسافات بعيدة إلى صيده[1].

" ويصف حاله إذا يجنه الليل تعصف فيه الريح البـاردة مـصحوبة بـالقش والمطر، فلجأ إلى كنف شجرة الأرطأة بعد أن انهمر عليه مطر غزيـر كالـسيل، وعند ما انحسر الظلام وطلع عليه الصبح وسطع، تصدى له وانقضَّ عليه صـياد عريق في حرفته، ألف أكل اللحوم واقتناءها، لا يرتدي إلا الثبات الخلقـة لقيامـه الدائم في البراري. وقد دفع أمامه كلابه الغضف، أي المسترخية الأذان، فهي تعدو بعد السير الطويل، منهمكة ضامرة، جائعة، حتى إذا لقيها الثور تولى وهرب منها، ثم ارتد، فأطلق الصياد كلابه الضارية، فأقبل عليها الثور بقرنه وطعن أولها ومزقه إرباً كالنجار الذي يشعب القدح إلى عشرة أجزاء. وانقض على الثاني بطعنـة ذات قعر عميق، يصوت الدم المنهمر منها، كما أنه أخمد أنفاس كلب ثالث بمثل ذلـك، وظل يكر على سبعة كلاب كراً متواليا يقبل ويدبر حتى أجهـز عليهـا، وتـولى منتصراً مزهواً"[2].

وفي هذه القصيدة نرى أكثر من صورة لليل فيها هموم، وفيهـا آلام، فمـرة يصف أن الليل معتكر وله أثواب وأستار، وأخرى يصف أن الليل لم ينم فيه مـن كان معسراً؛ أي من كان به هم، فيقول:

بَلْ وجه نُعْمٍ بَدَا والليلُ مُعتكر فَلاَحَ من بين أثوابٍ وأسْتَار[3]

([1]) انظر علي شلق: النابغة الذبياني، الصورة، النسق، النباهه، دار الهدى للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٨٥، بيروت، لبنان، ص ٤٠.

([2]) إيليا سليم الحاوي: النابغة سياسته، وفنه، ونفسيته، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٤م، ص٢٦٧.

([3]) الديوان عاشور، ص ١٤٨.

ويقول:

وما طلب الحاجات في كل وجهة وكيف ينام الليل من بات مُعْسِرا[١]

ففي البيتين السابقين نرى الألفاظ التي تدل على القلق النفسي فتجعله معتكراً؛ أي فيه سواد وتغيير، فشبَّه الليل بالماء العكر، وهو غير صالح للشرب.

وقد قرن النابغة الليل في أكثر من صورة، وجعله ملاحقاً له في بعض من الديوان، وقال حين بعث بنو عامر إلى حصن بن جذيمة أن اقطعوا حلفكم مع بني أسد، ونحن نحالفكم، فنحن بنو أبيكم. وكان ذلك في سوق عكاظ، وتقدم ذلك في القصيدة التى أولها " نبئت زرعة " في قافية الميم.

تحدث عن يوم الحرب، فوصفه بالشدة والطول، وهو أشبه بليل مظلم شديد إظلامه، فيقول:

إنّي لَأَخشى عَلَيكُم أَن يَكونَ لَكُم مِن أَجلِ بَغضائِهِم يَومٌ كَأَيّامِ

تَبدو كَواكِبُهُ وَالشَمسُ طالِعَةٌ لا النورُ نورٌ وَلا الإِظلامُ إِظلامُ

أَو تَزجُروا مُكفَهِرّاً لا كِفاءَ لَهُ كَاللَيلِ يَخلِطُ أَصراماً بِأَصرامِ[٢]

يربط في هذه الأبيات صورة لفظ ليلة بالمرأة الحرة التي تمنع الزوج من قربها له؛ أي باتت المرأة بليلة حرة؛ أي لم تمكن الزوج من قربها ليلة البناء بها، فإذا غلبها الزوج وتمكن من قربانها قالوا: باتت بليله شيباء، أي: ومن كن بهذه المثابة لا يمكن إلى غير أزواجهن، فهن عفائف في غيبة أزواجهن، وهذا مراد الشاعر، فيقول:

شُمُسٌ مَوانِعُ كُلِّ لَيلَةِ حُرَّةٍ يُخلِفنَ ظَنَّ الفاحِشِ المِغيارِ[٣]

---

(١) الديوان عاشور، ص١٥٧.

(٢) الديوان، عاشور، ص٢٢٩.

(٣) الديوان، عاشور، ص١٠٩.

وقال في اعتذارياته للنعمان مبيناً حالته النفسية، وقلقه مشبهاً نفسه بالمسموم الذي في يده أسورة ليوقظه بصرتها دائما، إذا تحرك؛ لأن المسموم إذا نام قد يصاب بالموت، ويبين ذلك في الليل الطويل، وهو ليل الشتاء فيقول:

يُسَهَّدُ مِن لَيلِ التَمامِ سَليمُها لِحَليِ النِساءِ في يَدَيهِ قَعاقِعُ[1]

وقال أيضاً في القصيدة نفسها مبيناً أنه لا يجد غير انتظار رد النعمان عليه، فإن كان حلف على البراءة من الوشاية التي وصلته من الكذابين، ولا أمان له منه فإنه مدرك لا محالة بأن النعمان سينكل به، وأنه عقابه واقع به، وهو مدركه كالليل الذي يدرك الناس جميعاً، وأن قدرة النعمان أمام ضعف النابغة أشبه بقدرة الليل حين يجيء، ويسود الظلام على الجميع، وهو يعجز عن الإفلات من أسره، وهو ساقط في هاوية لا محالة، وكأنه من مربوط بحبال متينة، وأيدٍ قوية، ولا محالة أنه واقع في ذلك، فيقول:

فَإِنَّكَ كَاللَيلِ الَّذي هُوَ مُدرِكي وَإِن خِلتُ أَنَّ المُنتَأى عَنكَ واسِعُ
خَطاطيفُ حُجنٌ في حِبالٍ مَتينَةٍ تَمُدُّ بِها أَيدٍ إِلَيكَ نَوازِعُ[2]

ولم يكن اختيار النابغة الذبياني للألفاظ والعبارات والجمل وتلاحقها من فراغ، فهو شاعر لديه حسن الاختيار، و ملاءمتها للموقف نفسه، فهو لديه المقدرة على توظيف هذه الأفكار، وهذه خصائص تميز بها النابغة في شعره.

" وأهم ما يستدعي انتباه المتأمل في شعر النابغة روعة موسيقاه، فهو ينتقي الألفاظ، ويؤلف بينها تأليفاً بديعاً، ويراعي مخارج حروفها، ولا ندعي أن النابغة كان يعكف على شعره طويلاً كما كان يعكف زهير، ينقي منه الغث، ويلاءم بين كلماته، ويستمع إلى رنينه في الأذن حولاً كاملاً، ولكن مما لا ريب فيه أن النابغة

(1) السابق، ص١٦٤.

(2) السابق، ص١٦٨.

لم يكن من مدرسة المرتجلين، بل مدرسة المجودين في الشعر، الذين يتأنون في إخراجه. أضف إلى ذلك موهبة فذة مكنته من ذلك النظم الموسيقي البالغ الانسجام، الشديد الأسر، المتمكن القافية"(١).

ويمكن أن نقول: إن النابغة استخدم صوراً عدة لليل، منها أنه وظف صورة الليل في كافة الجوانب لحياته الخاصة، وظروفه التي عاناها من قبل الوشاة الذين دبروا له ذلك عند النعمان بن المنذر، فهو في قلق دائم، ففي مدحه للغساسنة، برزت الصورة واضحة عنده حيث القلق، والهم، فتحدث عن الطبيعة، ووصف نفسه بالإنسان المسموم، الذي لا ينام، ويلبس في يده حُلِي حتى يسمع صوتها، كما شبه النعمان بالليل الذي يدرك الكون حينما يعم بظلامه، وذلك الليل بأنه معتكر له أثواب وأستار، ففيها صورة الليل الحزين والمؤلم.

" وهو في مواجهة النعمان، وكيد الأعداء، وعدم تصديق النعمان له وإصراره على إلحاق الضرر به، يقدم صورة يجد ما هيمنه النعمان عليه، فيشبه النعمان بالليل الذي لا بد أن يدركه وإن ظن أن المنتأى عنه واسع، فللنعمان وسائله في إدراكه خصومه تشبه تلك الخطاطيف التي يعلقها الجاهليون في الحبال؛ ليستخرجوا بها الماء من الآبار"(٢).

" ونراه يصور طول الليل وهمَّه فيه تصويراً بديعاً، فالكواكب بطيئة لا تجري، حتى ليظن أن الصبح الذي يرعى النجوم بأضوائه ويحصدها حصداً لن يؤوب، والليل يثقل على صدره بما يرد عليه من موجات الهم والحزن. وهي براعة استهلال رائعة تدل دلالة بينه على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يجسم معانيه، وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيماً بالصور. وقد خرج من ذلك توًا إلى مدح

---

(١) عمر الدسوقي: النابغة الذبياني، ص٢٤٢.

(٢) حسني عبدالجليل: الأدب الجاهلي قضايا، وفنون، ونصوص، ص٤٣٨.

عمرو بن الحارث الغساني وآبائه وعشيرته، ووقف طويلاً عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية"[1].

تلك هي صورة الليل عند النابغة الذبياني، والتي اعتراها الخوف والضيق، والآلام، والقلق المصاحب له.فهو وظف الشعر لخدمته، ولأغراضه الشخصية، من تكسب ومناجاة، وخوف واعتذار. فالحالة النفسية عنده ممتلئة بالهموم والمصائب، فرأينا فيها الخوف، والقلق والتوتر النفسي، فلم يشك الهم إلا لابنته أميمه، أو لزوجته أمامة، وفي كل ذلك نرى الإبداع الفني عنده واضحاً، والصورٌ مكتملة، والمواقف بارزة، وكذلك نرى تعدد الصور لليل عنده في مناسبات عدة، بخلاف في امرئ القيس.

(٢) الليل والفلسفة في الحياه عند طرفة بن العبد:

هو من شعراء، الطبقة الأولى كما صنفه ابن سلام الجمحي. وهو شاعر مبدع صاحب مواقف شعرية ومكانه متقدمه بين أقرانه الشعراء.

" وتعتبر معلقة طرفة من أهم آثاره دلالة على حياته وفنه، ولقد وعى جيداً منطق الحياة القبلية، ولم يكن عليه أن يتعرف على دقائق تلك الحياة، فهو واحد من أبنائها، تشغله ـ بالدرجة الأولى ـ تلك القيم القبلية التي أوقفت شعراء العصر عن الإسراف في عرض صور اللهو المجون إنَّ هم أرادوا ذلك"[2]. وقد خلدته هذه الظاهرة فجعلته مجالاً لنقاد والكتاب، وفي معلقته صور تعج بالحياة وتفيض بالحركة، وهو متعدد الأغراض،" وقد نظم طرفة في مختلف فنون الشعر المعروفة في العصر الجاهلي، من غزل ومديح، وهجاء، وفخر، ووصف، وحكمة، ولوم، وعتاب، وحنين.

---

(1) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ص٦، د. ت، ص٢٨٢.

(2) عبد الله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة العربية العصر الجاهلي، ص ١١٨.

بيد أن هذه الأغراض تتفاوت لصوقاً بنفسيته، واستحواذاً على فكره وفنه؛ فمنها ما تغلغل في أعماق نفسه، واستبد بلاعج مشاعره، كالغزل، الفخر، والهجاء، والحنين. ومنها ما استأثر بنصيب وافر من عقله، وتجاربه وفنه، كالوصف والحكمة"(١).

وذكر طرفة بن العبد فلسفة الموت والحياة، وقرنهما بصورة الليل، مبرزاً فيها صورته، وقلقه النفسي في الحياة.وقد خلدته هذه الظاهرة فجعلته مجالاً للنقاد والكتاب، وفي معلقته صور تعج بالحياة وتفيض بالحركة، وهو متعدد الأغراض،

" وقد ذكر طرفة مذهبه في الحياة، وهو مذهب يميل إلى اقتناص الحياة خوفاً من ضياعها، ويأساً من دوامها، فلعل في تحقيق اللذة انتصاراً على الموت، ذلك إذا كان الموت ــ كما تصوره الجاهلي ــ هو نهاية الوجود الإنساني، والتوقف عن ممارسة الحياة بكل متعها، فإنما الموقف الوجودي للشاعر الجاهلي إنما يبرز عنيفاً في تحديد الموت والفناء بالغموض عن لذائذها لا حباً في اللذة بوصفها لذة، ولكن حبا في الحياة وتعلقاً بها، كراهية في الغناء الذي تتوقف به ممارسة هذه اللذات"(٢). ويبين أن الموت يختار الكرام ويخصهم، ويصطفي خيار الناس، وأن الدهر لا يبقي على أحد.وقوله: المال ينقصه مرور الدهور، فيوشك أن ينفد وينقطع، وإذا كان كذلك، فينبغي ألا يضيق به ولا يدخر، فيقول:

أرى المَوتَ يَعتامُ الكِرامَ وَيَصطَفي عَقيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ
أَرى العَيشَ كَنزاً ناقِصاً كُلَّ لَيلَةٍ وَما تَنقُصِ الأَيّامُ وَالدَهرُ يَنفَدِ(٣)

---

(١) محمد علي الهاشمي: طرفة بن العبد حياته وشعره، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٨م، ص ٨٥.

(٢) عفت الشرقاوي: دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، ص ٢٨٧.

(٣) الديوان، ص٣٦، شرح الأعلم الشنتمري، مجمع اللغة العربية بدمشق، تحقيق درية الخطيب، لطفي الصقال، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

" يصف الشاعر بعد ذلك البقاء بأنه كنز ينقضي كل ليلة، وهنا يبلغ إحساسه الدرامي بمأساة الزمن وذروته، فالبقاء شيء ثمين لا يُقدَّر، ولكنه لا يزال ينقص، وما لا يزال ينقص لا بد من النفاد، والإنسان على ذلك رهن الموت مهما طال به الأجل، فالموت في مجاوزته للإنسان هو بمثابة حبل مطول للدابة ترعى فيه، وطرفاه بيد صاحبه، فلا يمكن الخلاص منه بحال، فمتى شاء الموت قاد الفتى لهلاكه، ومن كان في حبل الموت انعقاد لقوده بلا جدال"(1).

ويقول: إنني أرى أنه يجب ألا نتوانى في تنفيذ هذه الفلسفة الصائبة بحق، الرشيدة بغير مراد؛ إن العمر كالكنز والأيام والليالي تنفق منه، إذن فلا مناص من نفاده ونهايته.

وواضح أن منطلق طرفة في فلسفته التي ارتضاها لنفسه في الحياة أن الإنسان سائر للموت لا محالة، وإذا كان هذا مصيره المحتوم، فينبغي أن يبادر اللذات، وينتهبها انتهاباً، وينفق في سبيل اقتناص تلك اللذات ما في يده من مال.

" وهي فلسفة جاهلية منبثقة عن تصور محدود هابط لحقيقة الحياة الإنسانية، لا نلمح فيها جانباً سوى خلق الفروسية"(2).

وكما نعلم أن طرفة بن العبد كان من الشعراء المبدعين في وصف الناقة، وقد وصفها في معلمته بثمانية وعشرين بيتاً، ورسم لها عدة صور مختلفة، وقرنها بالمحبوبة، وصورها بالليل، وبأنها سريعة ضامرة تصل الليل بالنهار في سرعتها، فيقول:

لَعَمرُكَ ما أَمري عَلَيَّ بِغُمَّةٍ   نَهاري وَلا لَيلي عَلَيَّ بِسَرمَدِ(1)

---

(1) عفت الشرقاوي: دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، ص٢٨٨-٢٨٩.

(2) محمد علي الهاشمي: طرفة بن العبد حياته وشعره، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٧١-١٧٢.

إن ليل طرفة هنا ليس بالليل الدائم، لأنه قلق مهموم وحزين، ويقول في ديوانه: إذا هممت بأمر أمضيه، ولم يشتبه على الوجه فيه. و"القمة " الأمر المهم الذي لا يهتدى إليه.

وقوله: " لا ليلي علي بسرمد " أي: ليس بالدائم غير المنقطع. والمعنى: أنه إذا نزل به هم تلقاه بالصبر، فلم يطل ليله كما يطول ليل المحزون؛ وقيل أيضاً: إنه إذا هم بأمر أمضاه، وأنفذه، ولم يتردد فيه، فينشغل باله، ويمتنع من نومه(٢).

" وطرفه يشير في ذلك إلى أنه بما يملك من قوة النفس والرأي، وبما يملك من الشجاعة والإقدام، يحسم كل أموره دون أن يقع في حيرة تفسد عليه حياته ليلاً ونهاراً، ألم يشرح لنا من قبل أنه صاحب فلسفة، وفهم يصدر عنهما في كل أنماط سلوكه؟ أليس يجود بالمال والنفس من أجل الآخرين، تارة للذود عنهم وفدائهم، وأخرى لإكرامهم، وإمتاعهم.

أما في قصيدته والتي أولها:

أصحَوْتَ اليَوم أمْ شَاقَتك هِرْ ... ومن الحبِّ جُنُون مُستَعِر

لا يكن حبك داءً قاتلاً ... لَيسَ هَذا منكِ ماويَّ بِحُر (٣)

نرى مقدرته وقوته، وأنه ليس بشيخ كبير وضعيف، فهو يُرْهِب الناس، وأنه رجل قوي مسرع الخطى، وأي شيء يظفر به لم يفلت من يده، وهنا نراه يبرز سيطرته على صورة الليل، والتي يعني بها الناس أو الأعداء؛ لأن الجاهلي كان شجاعاً في سيره بالليل، فيقول:

لا كبيرُ دالِفُ مِنْ هَرَمٍ ... أرهَبُ الليل ولا كلَّ الظفر (١)

(١) الديوان، ص ٤٧.

(٢) أحمد أبو الأنوار: الشعر الجاهلي مادته الفكرية وطبيعته الفنية، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٣) الديوان، ص ٥٠.

أما في قصيدته التي هجا فيها عمرو بن هند، وكان بينه وبين طرفه أمر وقع له بينهما شر، والتي يقول في أولها:

يا عَجَبا مِن عَبدِ عَمرو وبَغيِهِ   لَقَد رامَ ظُلمي عَبدُ عَمرو فَأَنعَما[٢]

يصف حالته بأنه شرب كثيراً بالنهار والليل، ولكن شرب الليل كان كثيراً، وهذه طبيعة العرب في الجاهلية، ومن كثرة الشراب انتفخ، وصار مثل السخد، وهو ماء الرحم الذي يخرج مع الولد، أي شبهه بالمورم، وأن كثرة لحمه يحسبه أي شخص كأنه ورم، وهنا نرى استعماله لفظة الليل بالقصيد من وقت الشراب فهو وقت اللهو والسمر والمجون، فيقول:

له شربتان بالنَّهارِ وأَرْبَعُمِنَ اللَيلِ حَتّى آضَ سُخداً مُوَرَّما[٣]

وطرفة بن العبد يقرن صورة الليل بالهجاء، وفيها نرى شجاعته وبراعته في وصف صورة عمرو بن هند عند هجائه، ويقول لعمرو بن هند لائماً أصحابه في خذلانهم إياه مبرراً أنهم يروغون كما يروغ الثعلب، وضرب مثلاً بالليلة البارحة وضرب لهذا مثلاً، لشبه بعضهم ببعض في روغانهم منه وخذلانهم إياه، فيقول:

أَسلَمَني قَومي ولَم يَغضَبوا   لِسَوأَةٍ حلَّت بِهِم فادِحَه
كل خليل كُنْتَ خَالَلتهُ   لا ترَكَ الله له واضِحهْ

كلهم أروغ من ثعلبٍ   ما أشبه الليلة بالبارحة[٤]

وقال في قصيدة مطلعها:

([١]) الديوان، ص٦٠.
([٢]) الديوان، ص٩٩.
([٣]) الديوان، ص٩٩.
([٤]) الديوان، ص ١١٨.

أَتَعرِفُ رَسمَ الدارِ قَفراً مَنازِلُه كَجَفنِ اليَمانِ زَخرَفَ الوَشيَ ماثِلُه(١)

يتحدث في هذه القصيدة عن الغزل، والوصف دامجاً صورة الليل في ذلك أن العير في الفلاة، مرة يظهر، ومرة يختفي، وهذا دليل على الفلاة الواسعة، وماهو إلا رقيب يتحسس الطبيعة يسير، ويترقب، وينظر لئلا يراه أحد، حتى إذا جن عليه الليل،و اشتد سواده بقوله: " جيبت سرابله "؛ أي ليست قمصه، وهذا مثل لما شمل عليه من ظلامه، يصف أن خيال سلمى طرقه، فأخبر عنها، وهو يريد خيالها، فيقول:

يَظَلُّ بِهَا عَيرِ الفَلاَةِ كأنّهُ رَقيبٌ يُخافي شَخصَهُ وَيُضائِلُه

وَما خِلتُ سَلمى قَبلَها ذاتَ رِجلَةٍ إِذا قَسوَرِيُّ اللَيلِ جيبَت سَرابِلُه(٢)

وهنا نجد شيئاً من التشابه بين طرفه، وأمرئ القيس في وصف الليل حيث شدة الظلام، وطول الليل، والهم الذي ألم بكل منهما، ولكن الصورة عند طرفة تسيطر عليها اليقظة والانتباه.

ويقول أيضاً عن الليل مبيناً أن الحوادث، والكوارث لا تأتي مع أول الليل، وإنما تأتي في آخره، أي في وقت السحر، فيقول:

يا راقِدَ اللَيلِ مَسروراً بِأَوَّلِهِ إِنَّ الحَوادِثَ قَد يَطرُقنَ أَسحارا(٣)

ويقول في قصيدته التي أولها:

إِذا كُنْتَ في حاجةٍ مرُسلاً فَأرسِل حكيماً ولا توصِهِ(٤)

---

(١) الديوان، ص١٢٠.

(٢) الديوان، ص١٢١.

(٣) الديوان، ص١٥٦.

(٤) الديوان، ص١٦٧.

إنه لبس الليالي، أي غطى الظلام ما حوله، وأتى عليه الدهر بالهموم، وهي صورة خيالية أشبه بصورة سلمى، التي ذكرها في قصيدته السابقة، فيقول:

لَبِستُ اللَيالي فَأَفنَينَني   وَسَربَلَني الدَهرُ في قُمصِهِ[1]

ويصف صورة الليل بالجيش العظيم، صاحب الرأي في القتال والطعن، وأنه صاحب فضول، ومقدرة عظيمة بقوله:

وأرعن مثل الليل مجرٍ يَقُودُهُ   أديبٌ إذا ما ساور الأمر أ برما[2]

وقال أيضاً في يوم التحالق طالباً من صاحبيه أن يبلغا خولة أنه دائماً في قلق شديد، لا ينام، وهذه سمة العاشقُ حيث يبرز القلق والهمُ فيقول:

أبلغا خولة أني أرِقُ   لا أنامُ الليلَ مِنْ غيرِ سَقَمْ[3]

" وهكذا استمد طرفة مصادر صوره من بيئة، فاستطاع توظيفها في خدمة قضيته الخاصة بمالها من بعد إنساني، يتسم بقدر من التعميم والشمولية، وهو يتجاوز بذلك المادية البحتة، حين يحيلها إلى قضايا تخدم موقفه النفسي، وتنقل حقائق الوجود الجاهلي من خلال شعره، فبدأ مرتبطا من تصويره بالواقع الطبيعي والاجتماعي على نحو مباشر، وتأتي الصورة في كل الأحوال وثيقة الارتباط بالواقع النفسي"[4].

إن صورة الليل عند طرفة بن العبد، متعددة، مختلفة، في كافة مناحي الحياة، والظروف التي عاشها، وإن هذه الصورة غير مستقرة عنده، مرة تطول، وتارة تقصر، وقرنها مرة مع الناقة، عند وصفه لها، وأخرى مع عير الفلاة، وجَسَّد الليل

---

(1) الديوان، ص١٦٨.

(2) الديوان، ص١٩٤.

(3) الديوان، ص١٩٦.

(4) عبد الله التطاوي: اشكال الصراع في القصيدة العربية في العصر الجاهلي ص١٢٨.

في صورة أخرى، جعله ثوباً يلبس مع ظلامه الشديد، وفي كل نرى سيطرة جانب الحكمة عليه، فهو شاعر، مبدع، صاحب صور عدة في وصفه لليل، ولكافة الجوانب الشعرية.

وهو ذو طبيعة شعرية مستقرة برزن رزانته وشاعريته، فكان الرمز بارزاً في كل ما قاله، وكان له النصيب الأوفى في توجيه هذه الظاهرة في إطارها المحدد، وفي شخصيته التي أندمجت مع شاعريته الحية،

٤- الليل والحكمة والمدح عند زهير بن أبي سلمى:

هو أحد الشعراء الثلاثة المتقدمين على سائر الشعراء، وهو صاحب نهج معين للقصيدة الجاهلية، وهو أشعر الشعراء، كما قال عنه صاحب الأغاني.

فهو حولي ولموضوعاته الشعرية نمط خاص في ديوانه، إذ لم نَرَ المجون أو الفحش في شعره، بل نرى السلام، والحكمة، والوصف، والإبداع، وفي كل نرى ما تميز به الشاعر.

" وتظل أساليب المعالجة الفنية رهناً بقدراته وطبيعة المعطيات البيئية التي استمدها من حياة مجتمع البداوة، فإذا هو يرسم صورة واضحة من صور الحياة الاجتماعية بأبعادها المختلفة، ويكفي أن يكون باعث النظم لدية دالاً على رؤية سياسية أو اجتماعية، تعكس التحامه بكثرة الحروب التي شهدتها القبائل البدوية، تلك التي ارتضت لعلاقاتها الاجتماعية أن يحكمها الأخذ بالثأر وشريعة الغزو، كما ينم أيضاً عن تلك الدلالة الحضارية من زاويتين تتعلق أحداهما بإخلاص الممدوحين لقضية السلام، ودورهما في تحقيقها، وتتعلق الأخرى بصدق زهير في اعجابه بهما من أجل تبني تلك القضية، وحرصه عليها"(١).

---

(١) عبد الله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة العربية، العصر الجاهلي، ص٦٧.

إن صورة الليل عند زهير بن أبي سلمى، تبدو متباعدة، لما للشاعر من مواقف عظيمة، في موضوعاته، ومواقفه.

أما في غزله فنرى تهذيباً واضحاً، خالياً من الفحش، والمجون، كما فعل أقرانه السابقين عليه.

" وإذا نظرنا إلى الصورة التي قدمها عن الغزل فإننا نجد شيئاً مختلفاً، إذ أراد أن يشبه صباه وهواه الذي كفَّ عن حب سلمى حينما وصف رواحلها التي كانت ماضية في رحلتها حتى بلغت الغاية، وهنا يجد المعنى الذي أراده، ويجعلنا نحس بأن الصبا قد صار شيئاً ملموساً، مادياً، وهذه هي صناعة زهير وفنه، وقدرته على أن يعرض مثل هذه االصورة النادرة الجميلة. ولم يصل إلى ذلك بسهولة، ولكنه وصل إليه بعد تفكير استطاع عن طريقه أن يأتي بهذه الصورة البديعة "(١).

وفي معلقته، والتي اولها:

أَمِن أُمِّ أَوفى دِمنَةٌ لَم تَكَلَّمِ   بِحَومانَةِ الدُرّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ(٢)

يذكر الليالي في المدح متحدثاً عن مكانة هرم بن سنان والحارث بن عوف مبيناً أنهما أصحاب مكانة وكرم نتيجة ما تحملاه من ديات للقتلى في حرب عبس وذبيان، ولم يذكر إلا الإبل، وقرن صورة الليالي بها، وأنها أتت ليلاً؛ لأن الطروق لا يكون إلا بالليل، فيقول عن ذلك في البيت السادس والأربعين من المعلقة:

لِحَيٍ حِلالٍ، يَعْصِمُ الناسَ أمرُهُمْ   إذا طَرَقَتَ إحدىَ الليالِي بمُعظَمِ(٣)

(١) بهى الدين زياد: الشعر الجاهلي، تطوره وخصائصه الفنية، ص١٤٦.
(٢) الديوان، ص١٩.
(٣) الديوان، ص٣٣.

" وهذه الإبل التي تساق إلى أولياء القتلى من الفريقين، إنها في الأصل ملك لقوم كثيري الحلال والبيوت ـ هم قوم الحارث بين عوف، وهرم بن سنان ـ يحفظ الناس قدرهم ومنزلتهم وشأنهم، يلجؤون إليهم إذا رمت الأيام والليالي بما يعظم على نفوسهم ويثقل على كواهلهم، فهم أهل لدرء المصائب ودفع النوائب عن الناس جميعاً"[١].

إذن فزهير بن أبي سلمى قرن صورة الليل بالمدح وإبراز مكانة أهل المواقف الخاصة في الحرب، وهما هرم بن سنان، والحارث بن عوف. وتزداد ثقة زهير بواقعية فنه وصورة، حين يذكر القوم صراحة بتجاربهم الحروب، وتمهيداً لهذا المشهد الطويل الذي يرسمه لأخطار الحرب ومخاوفها، فيوزع بقينه بين النفي والإثبات، على طريقة التضاد لديه، حيث ينفي أن يكون حديثه عن الحرب ظناً أو رجماً بالغيب، بل يبدو حقيقة وواقعاً عاشته القبائل، فذاقت ويلاتها الأليمة. وتأكيداً لواقعية الحرب اعتمد زهير على واقعيته الفنية في كل الصور التي استعان بها في تشخيصها[٢].

وفي قصيدته، التي يقول في أولها:

فعَد عما ترى، إذ فات مطلبُهُ   أمس بذاك، غُرابُ البين إذ نَعقا[٣]

يرسم صورة كاملة للطبيعة، فذكر الشتاء، والربيع، والمطر، والسيل، وأن هذه الليلة الشديدة، إذا غابت عنها النجوم، فإن الريح والمطر، قد أضاءا الجانب، ففي هذه الصورة ذكر فيها الغراب رمز السواد، كما ذكر الشتاء، والثرى والسحاب

(١) محمد أبو الأنوار: الشعر الجاهلي، مادته الفكرية، وطبيعته الفنية، ص٢٥٣.

(٢) عبد الله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة العربية، العصر الجاهلي، ص٦١.

(٣) الديوان، ص٤٤.

وغيره، إذن هذه صورة كاملة للطبيعة القلقة، فيقول عنها قارناً بينها وبين صورة الليل:

ليلتهُ كُلها، حتى إذا حسرت   عنه النُجُوم أضاء الصبح، فانطلقا[١]

أما قصيدته التي يمدح فيها هرم بين سنان، والتي يقول في أولها:

لِمن الديار بقنه الحجر؟   أقوين، من حجج، ومن دهر[٢]

يصف صورة هرم بن سنان مبيناً أنه لو لم يكن بشر لكان منيراً مثل ليلة البدر، وهذا التشبية يذكر للأنبياء والصالحين، وهذا ما رآه زهير من تشبيه لهرم بن سنان.

لَو كُنتَ مِن شَيءٍ سِوى بَشَرٍ   كُنتَ المُنَوِّرَ لَيلَةَ البَدرِ[٣]

أما في قصيدته والتي مدح فيها هرم بن سنان والحارث بين عوف والتي يقرن فيها المدح مع الغزل، فيذكر سلمى فيقول:

صَحا القَلبُ عَن سَلمى وَقَد كادَ لا يَسلو   وَأَقفَرَ مِن سَلمى التَعانيقُ فَالثِقلُ[٤]

يذكر صورة الليل، ويقصد بذلك الوقت، مبيناً أنه يسير من الفجر إلى الليل إلى أن تُجَهدنا ناقته، ويذكر لفظ الطفل هنا بمعنى الليل، وبمعنى غيبوبة الشمس، فيقال: طفلت الشمس أي غابت، وهنا نرى عدة صور مختلفة لليل، فيقول:

لأرتَحِلَن بِالفَجرِ ثُمَّ لأَدأَبَن   إِلى اللَيلِ إِلا أَن يُعَرِّجَني طِفلُ[٥]

أما في قصيدته والتي يمدح فيها هرم بن سنان، التي يقول في أولها:

غَشيتُ دِياراً بِالنَقيعِ فَثَهمَدِ   دَوارِسَ قَد أَقوَينَ مِن أُمِّ مَعبَدِ[١]

---

(١) الديوان، ص٤٤.

(٢) الديوان، ص٧٦.

(٣) الديوان، ص٨٢.

(٤) الديوان، ص٨٣.

(٥) الديوان، ص٨٥.

يصف ناقته في سيرها يميناً وشمالاً في الليل كجنوحها في النهار؛ وذلك لنشاطها، وشدة إسراعها، دون أن يخرج سوطه لضربها للسير، فيقول:

تَرِدهُ ولَمّا يُخرِجِ السَوطُ شَأوَها   مَروحاً جَنوحَ اللَيلِ ناجِيَةَ الغَدِ(٢)

ويقول أيضا إنه يذهب إلى هرم بالناقة، ويسير بها في وقت الغدير أو الهجير، وهو نصف النهار، إلى ليل التمام، (وهو أطول ليل) إلى وقت الصباح فيقول:

إِلى هَرِمٍ تَهجيرُها وَوَسيجُها   تَروحُ مِنَ اللَيلِ التَمامِ وَتَغتَدي(٣)

" إن هذه الناقة فتبذل نشاطها كله لا تستبقي منه شيئاً حتى تبلغ ذلك المنهل دون أن تجهد بالضرب، أو تنهك بالزجر، ترده قبل أن يخرج السوط نهاية شوطها، أو غاية طلقها، ترده نشيطة مرحة، قوية جلدة، لم ينل منها أن سارت الليل كله، فهي تميل يميناً وشمالاً سريعة في الغشي والغدو، في الليل والنهار، كما تريد منها مريدة مذعانة، إن أجهدتها بالسير الطويل، أو الإرقال السريع، وجدتها نجيحة سريعة، مروحاً نشيطة، صبوراً جليدة، وإن تركنها دون إجهاد سارت متزيدة، فهي لك كما ينبغي"(٤).

أما في قصيدته، التي أولها:

وخالي الجبا أوردتُهُ القوم، فَاستقوا   بسفرتهم، من آجنِ الماءِ، أصفرا(٥)

---

(١) الديوان، ص١٦٠.

(٢) الديوان، ص١٦١.

(٣) الديوان، ص١٦٧.

(٤) عبد العظيم قناوي: الوصف في الشعر الجاهلي، ص٩٠.

(٥) الديوان، ص١٨٧.

يقول: أصفرَت إنه يمشي على عجل، ويريد أن يبادر الليل في أوائله، وأعاليه، إلى أن أحمرَ النهار، أي اصفرّت الشمس، فاستعمل لفظ الليل هنا بمعنى الوقت، فيقول:

على عجل مني، غشاشاً، وقد دنا ذُرى الليل، واحمَر النهارُ وأدْبرا(١)

أما في قصيدته، والتي مطلعها:

شطت أميمةُ، بعد ما صقبت ونأت، وما فني الجنابُ، فيذهَبُ(٢)

يذكر صورة السير أو الطيف الهادي البعيد، وهو ملم بالطرق التي يمشي فيها، وإذا جن عليه الليل يطرق أي مكان، أو ينزل في أي مكان، ويكون في طرقه للشخص الذي ينزل عنده بأدب وبعفه، ويذكر السير؛ لأنه يكون في وقت الليل، وهذه سمة عند العربي فيقول:

في كُلِّ مَثوى لَيلَةٍ سارٍ لَها هادٍ يَهيجُ بِحُزنِهِ مُتَأَوِّبُ(٣)

هذه هي صورة الليل عند زهير بن أبي سلمى، التي بدت باهته عنده وعشوائية، حسب مواقفه التي تحدث عنها، فقرنها بعده مواقف تبعاً لظروفه ومواقفه.

إذن صورة الليل عند زهير كانت بعيدة مختلفة عن أقرانه السابقين، وهو امتاز على جميع شعراء عصره بدقة التحديد في شعره سواء في وصفه للزمان، أو المكان، أو الصورة، فهو تميز بميزات فاق بها أقرانه.

---

(١) الديوان، ص١٨٩.

(٢) الديوان، ص٢٧٦.

(٣) الديون: ص٢٧٦.

٥- الليل والطبيعة عند الأعشى:

وهو أحد فحول أهل الجاهلية. عده ابن سلام في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية وقرنه بامرئ القيس وزهير والنابغة، وكان بعض أهل الكوفة يقدمونه عليهم، وكان أستاذ الشعراء في الجاهلية، وما مدح أحداً في الجاهلية إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا وضعه[١].

" وقد أشتهر الأعشى شهرة عظيمة، وكان لشعره تأثير عظيم، وشعره كسائر شعر الجاهليين يقوم على الوصف والقصص، وكان في قصصه يسير على أسلوب امرئ القيس في الحوار، وربما وجدنا عنده وحدة معنوية، ولكنها لا تكون إلا في بضعة أبيات، ولا تتاول سائر شعره؛ وهذا الشعر، على سهولته وانسجامه وموسيقاه، لا يخلو من خشونة البداوة. وقد اشتهر الأعشى شهرة عظيمة وكان لشعره تأثير عظيم"[٢].

إن صورة الليل عند الأعشى فيها جوانب متعددة، مقترنه بالحياة الجاهلية من طبيعة حية، وصامته، وإبل، وغيرها، ففي معلقته التي بدأها بقوله:

وَدِّع هُرَيرَةَ إِنَّ الركبَ مُرتَحِلُ وَهَل تُطيقُ وَداعاً أَيُّها الرَجُلُ[٣]

يتحدث عن صورة الليل مبيناً حالة المكان بأنه مقفر قد انعكست عليه، وهذا المكان الخالي من وحشته صار سكناً للجن، وهنا نرى طابع الخشونة والبداوة في اختياره للألفاظ من خلال قوله: ورب صحراء مستوية ملساء تشبه في استوائها مثل ظهر الترس، موحشة مقفرة لا نبات فيها ولا ماء، ولا إنسان، ولا حيوان، فصارت هذه سكناً للجن. " فهو يعرض لذكر الجن من خلال الليل فيزيده ذلك رهبة وفزعاً

---

(١) أحمد الشنقيطي: شرح المعلقات العشر، وأخبار شعرائها، ص٤٠-٤٢.

(٢) ديوان الأعشى، ص٦.

(٣) ديوانه، ص١٤.

أكثر مما لو جعل الليل المظلم وحده وعاد لحركته واضطرابه، وتكون لوحه أعشى قيس بهذه الإضافة الفنية أكثر عمقا من غيره فيقول:

وَبَلدَةٍ مِثلِ ظَهرِ التُرسِ موحِشَةٍ   لِلجِنِّ بِاللَيلِ في حافاتِها زَجَلُ
لا يَتَنَمّى لَها بِالقَيظِ يَركَبُها   إِلّا الَّذينَ لَهُم فيما أَتَوا مَهَلُ
جاوَزتُها بِطَليحٍ جَسرَةٍ سُرُحٍ   في مِرفَقَيها إِذا اِستَعرَضتَها فَتَلُ[1]

ويبرز مكانته في ذلك مبيناً أنه إنسان جرئ؛ لأن هذا المكان لا يستطيع أحد السير فيه، إلا هو، فهذا يدل على شجاعته، وهذه جوانب خيالية تناولها الأعشى نظراً لظروفه، وهي ضعف بصره.

ونراه يرسم صورة أخرى لليل فيها قلق، من رعد وظلام وفزع واضطراب، فيقول:

يا مَن يَرى عارِضاً قَد بِتُّ أَرقُبُهُ   كَأَنَّما البَرقُ في حافاتِهِ الشُعَلُ
لَهُ رِدافٌ وَجَوزٌ مُفأَمٌ عَمِلٌ   مُنَطَّقٌ بِسِجالِ الماءِ مُتَّصِلُ
لَم يُلهِني اللَهوُ عَنهُ حينَ أَرقُبُهُ   وَلا اللَذاذَةُ مِن كَأسٍ وَلا الكَسَلُ[2]

وهنا وظف حاله الليل وفق هواه ومجونه وشربه، وأن هذه الحالة لم تهمه ولم تنهه عن الشرب. إن الشاعر يؤكد انصرافه إلى مراقبة السحاب والبرق على الرغم من مظاهر اللهو والملذات التي تشده إليها التي يؤكد أنها لم تلهه عن ذلك، وهو حين يدعو جماعة الشاربين أن يشيموا معه البرق والسحاب، يستبعد على أن يقدر على ذلك الشارب الثمل، ومع ذلك يقدم توقعات هطول الغيث على لسانهم. ويبدو أن الشاعر كان معنيا بإبراز اهتمامه المنفرد، وعنايته الخاصة بتأمل البرق

---

(1) الديوان، ص١٤٦-١٤٧.

(2) النحاس: شرح المعلقات، ص٧١٠-٧١١.

والسحاب ومراقبتها، ولا شك أن هذا يتصل بدوافع بيئته، فقد كان أهل الجزيرة ومازالوا يهتمون بالمطر، ويخرجون مترقبين هطوله بسبب حرمان بلادهم من الأنهار فضلاً عن أن مياه الآبار ترتبط بكمية المطر المتساقط سنوياً "[1].

" وواضح أنه في هذه الأبيات يفخر بتحمله لمشقات السفر في هذه الأرض المتوحشة والتي لا يسمع فيها سوى صوت الجن والتي لا يركبها إلا في حمَّارة القيظ واشتعال الرمال إلا من تعود الصبر واحتمال المكاره، ويقول: إنه يقطع مثل هذه الأرض بناقة نِضْوِ أسفار ضامرة مؤثقة الخلق صلبة قوية، وهو لا يطيل في وصف أعضاء الناقة صنيع طرفة. بل يقتضب الحديث عنها غالباً، ويكثر حين يلم ببيان سرعتها أن يشبهها بحمار وحش أو ثور أو نعامة، ويطيل في وصف ما يلم به منها على عادة الجاهليين."[2].

أما قصيدته والتي بأولها:

بانَت سُعادُ وَأَمسى حَبلُها رابا   وَأَحدَثَ النَأيُ لي شَوقاً وَأَوصابا[3]

يذكر الليل مقترنا بوصف المحبوبة مبيناً أن ثغرها رطب، مستوية الأسنان رائحة فمها طيبة أشبة برائحة البلح، فهو يقرن صورة الليل بالغزل، وليس الهم، ويتناول صورة كاملة للغزل، تطرق فيها إلى وصف مفاتن المحبوبة، وهي سعاده، وربما يكون مقصده من ذلك السعادة، فيقول:

أيام تجلو لنا عن باردٍ رتِلٍ   تخالُ نكهتها بالليل سُياباً[4]

أما في قصيدة التي قالها لشيبان بن شهاب الجحدري، التي يقول في أولها:

([1]) حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا، وفنون، ونصوص، ص١٤٣-١٤٤.

([2]) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص٣٥٣-٣٥٤.

([3]) الديوان، ص١٣.

([4]) الديوان، ص ١٣.

أَجَدَّ بَتِيّاً هَجرُها وَشَتاتُها		وَحَبٌّ بِها لَو تُستَطاعُ طِياتُها[١]

يصف الخمر بالأفعى، وأن لها أنياباً، بعد أن تناولها في الوقت الأخير من الليل، فتلعب بالرؤوس، وهي أشبه بلدغة الحية، وكذلك وقت العشي تبرز نشوتها، وتجعل صاحبها بحالة نشوة شديدة، فيقول:

متى تُسقَ مِنْ أنيابِها بَعدَ هَجعةٍ		من الليلِ شرباً حينَ مالَتْ طُلاتُها

وَعِندَ العَشيِّ طيبُ نَفسٍ ولَذَّةٌ		وَمـــــالٌ كَثيرٌ غُدوَةً نَشَواتُها[٢]

هنا قرن الأعشى صورة الليل وفق هواه ونشوته، فذكر الوقت الأخير من الليل، وهو وقت الشراب، وهذا وفق هواه وما اتم به الأعشى من مجون وشراب.

أما في قصيدته التي يمدح فيها النعمان بن المنذر والتي أولها:

أَتَرحَلُ مِن لَيلى وَلَمّا تَزَوَّدِ		وَكُنتَ كَمَن قَضّى اللُبانَةَ مِن دَدِ[٣]

يصف النعمان بأنه حامي عشيرته، وأن قومه نيام، هو يحمي حماهم وَهَمُ النعمانِ هو حرصه على القوم، فهنا قرن صورة الليل بالنعمان بن المنذر، فالناس قيام وهو يحمي حماهم، فيقول:

طويلِ نِجادِ السَّيفِ يبعَثُ همُّهُ		نيامَ القطا بالليل في كلِّ مهجدِ[٤]

أما في قصيدته التي أولها:

أَلا حَيِّ مَيّاً إِذ أَجَدَّ بُكورُها		وَعَرِّض بِقَولٍ هَل يُفادى أَسيرُها[٥]

يرسم صورة كاملة عن الليل وظلماته ورهبته، مبينًا أن هذه الصورة لا تتجلي إلا إذا جاء ضوء الشمس، وحل النهار، فيقول:

---

(١) الديوان، ص ٣٠.

(٢) الديوان، ص ٣٠-٣١.

(٣) الديوان، ص ٤٧.

(٤) الديوان، ص ٤٨.

(٥) الديوان، ص ٦٧.

وَلَيلٍ يَقولُ القَومُ مِن ظُلُماتِهِ   سَواءٌ بَصيراتُ العُيونِ وَعورُها
كَأَنَّ لَنا مِنهُ بُيوتاً حَصينَةً   مَسوحٌ أَعاليها وَساجٌ كُسورُها
تَجاوَزتُهُ حَتّى مَضى مُدلَهِمُّهُ   وَلاحَ مِنَ الشَمسِ المُضيئَةِ نورُها[1]

" وادلهام الليل بسواده الكثيف يوحي إلى الأعشى أن جدراناً عالية تطاول السماء قد قامت من حولها مسكينه، فجعلتها حصوناً حصينة وقلاعاً شامخة. ثم إن الليل الرهيب على الصورة التي تأملها لم يحل بينه وبين المضي، وينتهي مدلول البطولة، أو أن الشاعر ينهي مدلول البطولة وحدودها عند إضاءة نور الشمس، وكأنه يقول:

ليس للتحدي وقع في النفوس إذا اقترن بوضح النهار"[2].

أما في قصيدته التي قال فيما كان بينه وبين بني جحدر، التي يعظهم فيها ضارباً المثل بإرم وعاد حينما أهلكوا، وتساوى بهم الليل والنهار، والليل هنا يعني الهلاك والدمار.

الذي أصابهم، فصار مثلاً يضرب بهم فيقول:

أَلَم تَرَوا إِرَماً وَعادا   أَودى بِها اللَيلُ وَالنَهارُ [3]

أما في قصيدة التي يصف فيها حالة خليله بأنه خالي البال، ينام مطمئناً، دون قلق وألم، أما هو فبات يرعى النجوم ويرقبها، ويناجيها، وهذا يدل على الهموم والآلام، وهذه سمة عند الإنسان القلق والهموم، فيقول:

نامَ الخَلِيُّ وَبِتُّ اللَيلَ مُرتَفِقا   أَرعى النُجومَ عَميداً مُثبَتاً أَرِقا[1]

([1]) الديوان، ص ٦٨.

([2]) جليل، رشيد فالح: مجلة آداب الرافدين، ص ٥٣٧.

([3]) الديوان، ص٧١.

وهنا رأينا صورة نفسية قلقة، لا نراها عند الأعشى إلا في حالة نادرة لأنه صاحب منهج معين في أشعاره. والحق أن الأعشى في شعره جميعه يعد تمهيداً للشعر الحضري الذي ظهر من بعده، سواء في غزله وخمره أو في هجائه ومديحه، فهو في هذه الموضوعات جميعاً يفصح عن ذوق متحضر، سواء في خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم أو في خطاب النساء والتذلل لهن، أو في اللَّعب بمهجويه والاستهزاء بهم والاستخفاف، أو في وصف الخمر ومجالسها ودفاتها وكؤسها"(٢).

إذن فهذه صورة لليل عند الأعشى، وهي صورة مقترنة بعدة جوانب للطبيعة بعيدة عن الهم والخوف والقلق، وقد غطَّى فيها جوانبه التي تميز بها من وصف وغزل.وفخر وهجاء وهو لم يشك همه لليل إلا نادراً في قصيدة واحدة كما رأيناه، ونتفق مع الأستاذ الدكتور المرحوم شوقي ضيف حينما قال عن الأعشى!

" وواضح من كل ما قدمناه أن الأعشى يُعد حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلي، وهي حلقة تضيف جديداً واضحاً إلى هذا الشعر سواء في موضوعاته أو في أحاسيسه، أو في سهولة ألفاظه، أو في خفة أوزانه وجمال أنفاسه وألحانه"(٣).

٦- الليل والشجاعة عند عنترة بن شداد:

هو أحد الشعراء الفرسان المعروفين في العصر الجاهلي، وهو صاحب بطولات، ومواقف عدة، وصاحب شهرة كبيرة بين أقرانه من الشعراء. وإذا كان عنترة قد أمضى فترة من حياته عبداً، فإن هذه العبودية لا تستطيع أن تنفي عنه استعداده الأصيل لحمله راية الحرية، وهذا الاستعداد دفعه إلى أن يستغل الظروف

---

(١) الديوان، ص١٢٤.

(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص٣٦٢.

(٣) السابق، ص٣٦٥.

الحرجة التي مرت بقبيلته، فيشارك في حروبها، ويفرض عليه حريته، ومن هذا الاستعداد أيضاً، يبرز تعليل معقول لتحدي عنترة لسادة عبس في أكثر من موقف، فلقد كان يشعر أن أفعاله وبطولته وشجاعته أمور لا ترتبط بالنشأة، قدر ارتباطها بالنفس وسموها"[1]. ولكن هذه المواقف صنعت منه بطلاً وفارساً، نال شهرة كبيرة بين أقرانه الشعراء.

" وتزداد المعاناة عند عنترة، وتتضخم في نفسه الأزمة، إذ ما زال يرسف في أغلال العبودية التي فرضت عليه قهراً، دون أن يلحقه أبوه شداد، حتى يسوق له القدر واقعة تتفرج معها أزمته، وكان إلحاقه بأبيه شداد لم يكن ليتم إلا من خلال ذلك الظرف التاريخي العصيب الذي أحاط بالعبيسين، ليكون مجالاً خصباً لإبراز فروسية عنترة، حيث بدت فروسيته لها قيمتها وخطرها، إذ حولت حياة الشاب، وغيرت فيه الانتماء الطبقي الذي ضاق به ذرعاً زمناً من حياته، بل غيرت حياة قبيلة كلها"[2].

إن صورة الليل عند عنترة تبدو باهتة، نتيجة ظروفه التي مرَّ بها وكذلك تطلعه إلى طلب الحرية،فهو لم يشك همه لليل، بل شكا همه لنفسه، ثائراً من كل ما أحاط به في معلقته، والتي أولها:

هَل غادَرَ الشُعَراءُ مِن مُتَرَدَّمِ أَم هَل عَرَفتَ الدارَ بَعدَ تَوَهُّمِ[3]

يذكر وقت الرحيل، وهو الليل، وقد بيَّن أنه ليل مظلم من وجهة نظره؛ لأنه يفارق من يحب، وهذه سمة غالبة عند الشعراء، فيقول:

---

(1) مقدمة ديوان عنترة بقلم محمد سعيد مولوي، المكتب الاسلامي، دمشق، اغسطس١٩٦٤ ط١، ص٣٦-٣٧.

(2) عبدالله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة الجاهلية، العصر الجاهلي، ص١٤٠.

(3) المعلقات التسع، للنحاس، ص٤٥٤.

إِن كُنتِ أَزمَعتِ الفِراقَ فَإِنَّما زُمَّت رِكابُكُمُ بِلَيلٍ مُظلِمِ[١]

وهي صورة مُنعكسة على عنترة، ذكر فيها صورة الليل حالكة السواد، وهو وقت رحيل القوم.

أما في قصيدتة، والتي يهجو فيها عمارة بن زياد، والتي يقول في أولها:

حَولي تَنفُضُ اِستُكَ مِذرَوَيها لِتَقتُلَني فَها أَنا ذا عُمارا[٢]

يصف سيفه بالنار لصفائه، وحدته، فهو يقرن السيف ولمعانه بالنار التي تُشْعَل وقت الظلام، فصورة الليل هنا فيها القسوة، والشدة والقوة، وهي سمة مُنفكة على نفسه، فيقول:

وَمُطَّرِدُ الكُعوبِ أَحَصُّ صَدقٌ تَخالُ سِنانَهُ بِاللَيلِ نارا[٣]

يوضح ذلك أن هذا السيف إذا نظرت إليه بالليل فإنه يضيئ الظلام كأنه نار ملتهبة.

وقد تأتي صورة الليل عنده متكررة، فيذكر حالته وسيره في البادية منفرداً دون رفيق، مبيناً أنه قد أوتي نصيباً وافراً من الشجاعة والإقدام، فيقول:

وَكَيفَ أَخشى مِنَ الأَيّامِ نائِبَةً وَالدَهرُ أَهوَنُ ما عِندي نَوائِبُهُ

كَم لَيلَةٍ سِرتُ في البَيداءِ مُنفَرِداً وَاللَيلُ لِلغَربِ قَد مالَت كَواكِبُهُ[٤]

ويؤكد ذلك أيضاً بمقطوعة أخرى، فيقول:

أَطوي فَيافي الفَلا وَاللَيلُ مُعتَكِرُ وَأَقطَعُ البيدَ وَالرَمضاءُ تَستَعِرُ

(١) ديوانه، ص٢٣٥.

(٢) ديوانه، ص٢٣٥.

(٣) ديوانه، ص٢٣٥.

(٤) لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص٨١٨.

وَلا أَرى مُؤنِساً غَيرَ الحُسامِ وَإِن   قَلَّ الأَعادي غَداةَ الرَوعِ أَو كَثِروا[1]

هذه شجاعة عنترة، انعكاس ظروفه وحياته، واقترانها بصورة الليل، ونتفق مع الأستاذ الدكتور المرحوم شوقي ضيف حينما قال: وقد طارت شهرة عنترة بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية، وما زالت ذكراه عالقة بأذهان العرب إلى اليوم، فهو مثلهم الأعلى في البسالة والبطولات الحربية، وقد اتُخذت من أخباره نواة للملحمة المعروفة باسمه، والتي ممكن أن تعد إلياذة العرب"[2].

هذه هي صورة الليل عند عنترة بن شداد، وفيها اختلاف عن أقرانه الشعراء، فجاءت مقترنة ببعض المواقف التي مرَّ بها في حياته فرأينا فيها القوة، والعنف، والظلام الشديد، وكذلك تناوله فيها أداة الحرب كالرمح والسيف.

٧- الليل والرحيل والمغامرات عند لبيد بن ربيعة:

فارس من فرسان قومه، عاش في الجاهلية والإسلام، وكان من الأجواد المشهورين، وهو صاحب حكمة، وضعه ابن سلام من شعراء الطبقة الثالثة مع نابغة بن جعدة، وأبي ذؤيب الهذلي، والشماخ. وكان أشهر بني عامر (قومه).

إن صورة الليل عند لبيد تبدو متفاوتة، من حالة إلى أخرى، ومن موقف إلى آخر، ولكنه بخلاف سابقه (عنترة بن شداد) فهو لم يتطلع إلى حرية أو إلى مكانة في قومه، بل كان فارساً وشجاعاً صاحب مكانة عند بني عامر.

وفي ديوانه نلحظ مقدرته، ومكانته الشعرية، وتنقلاته من موقف إلى موقف، ففي قصيدته التي بدأها بقوله:

راحَ القَطينُ بِهَجرٍ بَعدَما اِبتَكَروا   فَما تُواصِلُهُ سَلمى وَما تَذَرُ[3]

---

(1) السابق، ص٨٣٧.
(2) العصر الجاهلي، ص٣٧٠.
(3) ديوانه، ص ٢٨.

يتحدث عن رحيل القوم وقت الهجير، وحينما حلَّ الليل وألبسها ظلمته، وهذا جعله في قلق وسهر دائمين، لدرجة أنه لم يفرق بين الليل الذي تمنى زواله، ويصف نفسه بأنه جواد لاهٍ بالنهار والليل، وأنه صاحب كرم يعطي المال كما يصب الماء، وهو يربط الليل والصبح إلى الحد الذي جعله ترك الشراب، وعافه من كثرته، وهذا دليل على إبراز مكانته من خلال وصفه للصورة الكاملة للتفريج عن موقفه وآلامه تجاه مغادرة الركب الذي كانت فيه المحبوبة، مبيناً جوانب عدة لليل مع اقترانها باللهو والمجون والشراب والقيان، وهذا من أجل نسيانه للهموم، وهو لم يفرق بين الليل والنهارُ فيقول:

كَأَنَّ فاها إِذا ما اللَيلُ أَلبَسَها   سَيابَةٌ ما بِها عَيبٌ وَلا أَثَرُ
ما يَمنَعُ اللَيلُ منّي ما هَمَمتُ بِهِ   وَلا أَحارُ إِذا ما اعتادَني السَفَرُ
غَربُ المَصَبَّةِ مَحمودٌ مَصارِعُهُ   لاهي النَهارِ لِسَيرِ اللَيلِ مُحتَقِرُ
يُروي قَوامِحَ قَبلَ اللَيلِ صادِقَةً   أَشباهَ جِنٍّ عَلَيها الرَيطُ وَالأُزُرُ (١)

وقد جاءت هذه الأبيات تعبيراً عن مقدرته بأنه يستطيع إذا أصابه هم فلديه المقدرة على أن يمضيه في جانب من جوانب اللهو أو المجون، أو الشراب.

أما في قصيدته والتي بدأها بقوله:

أَلَم تُلمِمِ عَلى الدِمَنِ الخَوالي   لِسَلمى بِالمَذانِبِ فَالقُفالِ(٢)

يرسم صورة كاملة لليل وما يصاحبه من برد وضجيج، وسحاب وظلام، فهو يحدث صاحبه، كما فعل أمرؤ القيس، فهذه الصورة منعكسة على الليل، وهي صورة كاملة لما تحدثه للطبيعة من قلق وتوتر. تلك لوحة لبيد العامري؛ وفيها الحيوية والحركة والامتداد، ولا شك أنه كان يضع بين يديه لوحة امرئ القيس،

---

(١) شرح ديوان لبيد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٢ م، تحقيق د. إحسان عباس، ص٦١-٦٦.
(٢) الديوان، ص٧٢.

فأفاد من إبداعه عندما حدثنا عن البرق والوحش، والجبل والسحاب، والذبال والحديث إلى الصاحب، ثم أضاف لبيد إلى ذلك منظر الأحباس والمتحاربين، والنساء النائحات، والإبل ترسل أصوات الحنين إلى أولادها وقد حيل بينهما. وبذلك احتل تصوير لبيد منزلة إن لم تصل إلى مكان تصوير امرئ القيس فلن تختلف عنه كثيراً"(١).

إذن فلبيد بين ربيعة يتناول حالة الليل بصورة متتابعة، حينما وصفه من أوله إلى آخره وما به من ضجيج وظلام، فيقول:

أصاح ترى بريقاً هب وهناً ... كمصباح الشعيلة في الذُّبال
أَرِقتُ لَهُ وَأَنجَدَ بَعدَ هَدءٍ ... وَأَصحابي عَلى شُعَبِ الرِحالِ
يُضيءُ رَبابُهُ في المُزنِ حُبشاً ... قِياماً بِالحِرابِ وَبِالإِلالِ(٢)

أما في معلقته الآتية التي تعد درَّة في جبينه والتي استلها أفضل استهلال، وأبدع فيها مبرزاً جوانبه المتعددة. ولقد استهل لبيد مطولته بقولة: عفت الديار. هذا استهلال أمارة بشرى أو كشف مرموق. وتهذيب لصورة الزمان ومصالحة ميسورة دامية الثمرات. وكان فراق الأحباب فيما يبدو هو الخطوة الأولى في طريق هذا النضج كله. لقد استحال كل شيء إلى فيض وصور وتلقائية لا تتهجم ولا تتهدد، بل تجود على العكس بما عندها بدون احتياط أو توجس. سخاء ملموس خال من الكدر والأذى ولا خوف مما يؤول إليه الغدر. تحررت السحابة والريح والمطر، وتحرر المكان والغداة والغشي من التفكير في الماضي وتوقع الانتهاء. وسيطر عليها من أجل انسجام غريب، وأصبح العفاء والتأبد آيتين في هذا الفيص المنسجم

---

(١) سعد إسماعيل شلبي: الأصول الفنية للشعر الجاهلي، ص٢٣٩.

(٢) ديوانه، ص٨٨- ٩٨.

المعطاء"[1]. ونرى صورة الليل المتعددة المقترنة بالطبيعة واللهو والمجون، فيصف الطبيعة بما فيها من مطر متتابع، وأن الغيم قد غطى الأنحاء.

" ذلك المطر يعلو ظهرها من أوله إلى آخرة في تواتر مستمر بليلة ليلاء مظلمة، غطى نجومها غمام أسود. حاولت البقرة دخول ثقب في أصل شجرة، يشبه البقرة في مأساتها فهو متقلص منتح متفرق الفروع بسبب البرد والمطر، ذلك في مؤخرة مجموعة كثبان تنهال رمالها وتنهار. ومع ذلك فإن جذوة الحياة في البقرة تضيء في وجه الظلام، وقد انطلقت تتحرك في خط متعرج فبدت مثل حبات من لؤلؤ ثمين أحضره غواص وقد تناثر على الأرض. وظلت هكذا حتى انحسر الظلام عن الكون، وأضاءت الدنيا، فانبعثت تجري في هذا الصباح المبكر تنزلق فوق الثرى أقدامها معرضة للتعثر والخطر كأن أقدامها أقداح ميسر تحت رحمة الحظ"[2]. إذن فهذه الصورة التي نلحظها عند لبيد فيها لوحة كاملة للطبيعة وما فيها من جوانب متعددة، فيقول:

يَعلو طَريقَةَ مَتنِها مُتَواتِرٌ　　　في لَيلَةٍ كَفَرَ النُجومَ غَمامُها
تَجتافُ أَصلاً قالِصاً مُتَنَبِّذاً　　　بِعُجوبِ أَنقاءٍ يَميلُ هُيامُها
وتضيءُ في وجهِ الظلام مُنيرةً　　　كجمانة البحري سُلَّ نظامها
حَتّى إِذا اِنحَسَرَ الظَلامُ وَأَسفَرَت　　　بَكَرَت تَزِلُّ عَنِ الثَرى أَزلامُها[3]

تلك هي الصورة الكاملة التي رسمها عن الطبيعة، أما عن محبوبته وشجاعته وقدرته فإنه يربط صورة الليل بهذه السمات معاتباً نوَّار، مبرزاً قدرته على تحمل

([1]) مصطفى ناصف: صوت الشاعر القديم، ص٢٢.

([2]) سليمان العطار: المعلقات السبع، الدار الثقافية للنشر، مصر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١٢٠.

([3]) ديوانه ص ٣٠٨-٣١٠.

الهجر والفراق، وبين أنه صاحب مكانة عند تاجر الخمر، وأنه يقضي الليالي في اللهو والمجون، وهذا ينسيه إياها، فيقول:

بَل أَنتِ لا تَدرينَ كَم مِن لَيلَةٍ ... طَلقٍ لَذيذٍ لَهوُها وَنِدامُها
قَد بِتُّ سامِرَها وَغايَةُ تاجِرٍ ... وافَيتُ إِذ رُفِعَت وَعَزَّ مُدامُها
أُغلي السِباءَ بِكُلِّ أَدكَنَ عاتِقٍ ... أَو جَونَةٍ قُدِحَت وَفُضَّ خِتامُها(١)

" وهنا يعود فيحدثنا عن قدرته على هجر صاحبته نوار ما دامت قد هجرته، مباهياً بشجاعته وكرمه، وحبه للقتال، وخوض المعارك، والشغف بالسمر مع الخلان، وشرب الصهباء غبوقاً وصبوحاً، كما يعتز بقدرته على الذود عن قبيلته راكبا وراجلاً، ليلاً ونهاراً"(٢).

إذ يمكن أن نقول كلمة عن لبيد: إنه يغلب على شعره الهدوء، والرزانة، وهو صاحب فن تصويري متناسق، لديه قدرة في الذود عن قبيلته، ويتقن برحلات صيده، ولهوه، ومجونه.

إذا صورة الليل عند لبيد مقترنة بالرحيل، والطبيعة، والسمر، واللهو، فهي صورة مختلفة، وإن كانت تتشابه في بعض من الأمور مع امرئ القيس وعنترة، إذ نرى اقترانها مع امرئ القيس تجاه وصفه البرق والضوضاء، وعند عنترة بن شداد، تقترن بالشجاعة، الفروسية على الرغم من أن شجاعة وفروسية عنترة يتطلع فيها إلى الحرية والتخلص من الرق، والفوز بالزواج من عبلة، ففيها المتاعب والمشقات، أما شجاعة لبيد فهي نابعة من وجدانه، وفروسيته، لما بلغ به من مكانة عند قومه، فكان سيداً عندهم.

---

(١) ديوانه ص ٣١٣-٤١٤.

(٢) سعد إسماعيل شلبي: الأصول الفنية للشعر الجاهلي، ص٢٠٨.

ويبرز لبيد في وصفه لصورة الليل وتحمله المشقات وإبراز مكانته التي تميز بها من خيال واسع، لذا وفق في وصفه لصورة الليل وفق هواه وشاعريته.

فهو لا يصرح بالليل أحياناً، ولكن القارئ يحس به مباشرة من خلال وصفه للمغامرات اللطيفة لما فيها من أنس ولعب وهوى، فهو كرّس نفسه وحياته تجاه هذه الصور التي تناولها في صفةٍ لصورة الليل.

٨- الليل والطبيعة والحب عند عبيد بن الأبرص:

عده ابن سلام في شعراء الطبقة الرابعة، وقرنه بطرفة وعلقمة بن عبدة التميمي، وعدي بن زيد العبادي. قال: عبيد بن الأبرص قديم عظيم الشهرة، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله:

أَقفَرَ مِن أَهلِهِ مَلحوبُ		فَالقُطَبِيّاتُ فَالذَنوبُ[١]

إن صورة الليل عند عبيد بن الأبرص مضطربة، موزعة في عدة جوانب مختلفة، متنوعة، فمعلقته تخلو تماماً من وصف صورة الليل، ولكننا نرى جوانب مختلفة في ديوانه.

ففي قصيدته التي يقول في أولها:

تذكَّرتُ أهلي الصالحين بملحُوبِ		فَقَلْبي عليهم هالِكُ جدّ مغلوبِ[٢]

يفخر فيها بقومه، ويرسم صورة كاملة للخيل وللبوم، وأن الليل قد غطاه وستره، وهذا دليل على أن الليل يستر على الكون بظلامه، والصورة هنا عرضية لا يوجد فيها وصف، بل فيها سرعة الخيل وخفته، وكذلك فيها صياح البوم، فيقول:

وَخَيلٍ كَأَسرابِ القَطا قَد وَزَعتُها		بِخَيفانَةٍ تَنمي بِساقٍ وَعُرقوبِ

وَخَرقٍ تَصيحُ الهامُ فيهِ مَعَ الصَدى		مَخوفٍ إِذا ما جَنَّهُ اللَيلُ مَرهوبِ[١]

---

(١) المعلقات العشر الشنقيطي، ص ٥٦.

(٢) الديوان ص ٣٧.

أما قصيدته، والتي يذكر فيها لائمته والدعاء عليها لأنها تلومه على شرب الخمر والتي يقول في أولها:

هَبَّت تَلومُ ولَيسَت ساعَةَ اللاحي   هَلا انتَظَرتِ بِهَذا اللَومُ إِصباحي(٢)

يصف حالته أنه يرقب البرق بالليل من السحاب المعترض في السماء، والشديد البياض، وهذه سمة العاشق، الذي يرقب السماء بالليل، ولكنه لم يرَ شيئاً؛ لأن السحاب غطى السماء، فوصف صورة كاملة للطبيعة من مطر وبرق ورعد.

" وحديث عبيد بن الأبرص عن البرق يكاد يكون تكراراً لحديث امرئ القيس فهو مثله يرقب البرق في الليل. والليل لا يمنح الحدث حركة ولا فاعلية؛ لأن وروده مقترناً بالبرق هو الذي يسلب منه كل دلالة معنوية أو فنية"(٣).

يا مَن لِبَرقٍ أَبيتُ اللَيلَ أَرقُبُهُ   في عارِضٍ كَمُضيءِ الصُبحِ لَمّاحِ
دانٍ مُسِفٍّ فُوَيقَ الأَرضِ هَيدَبُهُ   يَكادُ يَدفَعُهُ مَـــن قامَ بِالراحِ(٤)

وفي قصيدته التي يبدأها بقوله:

دَعا مَعاشِرَ فَاستَكَّت مَسامِعُهُم   يا لَهفَ نَفسِيَ لَو تَدعو بَني أَسَدِ(٥)

يشبه الجيش بالليل، وهذا دليل على كثرته، فالليل يغطي على كل شيء، وكذلك الجيش يغطي على كل شيء، ويلتهم كل شيء، فيذهب به، يقول:

بِجَحفَلٍ كَبَهيمِ اللَيلِ مُنتَجِعٍ   أَرضَ العَدوِّ لُهامٍ وافِرِ العَدَدِ(٦)

---

(١) الديوان ص ٣٨.
(٢) الديوان ص٥٢.
(٣) مجلة آداب الرافدين، ص٥٥٧-٥٥٨.
(٤) الديوان ص٥٢-٥٣.
(٥) الديوان ص٥٦.
(٦) الديوان ص ٥٧.

أما قصيدته التي استهلها ببيتين من الحكمة، ثم وصف امرأة اسـمها مهـدد، وانصرف إلى وصف الظبية، ثم إلى فراق الأحبة، وشبة ناقته بـالثور الوحـشي، ووصفه، ثم انتهى إلى مدح شراحبيل بن الحارث الكندي، والتي يقول في أولها:

إِنَّ الحَوادِثَ قَد يَجيءُ بِها الغَدُ وَالصُبحُ وَالإِمساءُ مِنها مَوعِدُ[1]

يتحدث عن وقت الفراق، وهو أصعب شيء عند العاشق، فوصفها بأنها ليلة شديدة البرودة، ذات ريح شديدة، لذا سماها ليلة رجبية، فيقول:

باتت عليه ليلةٌ رجبيةٌ نصباً تسحُّ الماءَ أو هي أسودُ[2]

وفي قصيدته التي يخاطب في بدايتها خيال الحبيبة، ثم ينتقل إلى مخاطبة أبي كرب عمرو بن الحارث بن حجر آكل المرار، ثم يفتخر ببني أسد وبشجاعته.

يبين أن خيال محبوبته قد طاف عليه، وأنه التقى بها من غير ميعاد محـدد، وهذه أجمل الصدف، وقد اهتدى لسير ركبها، وسار ليلاً بناقة مطبوعة على العمل في سيرها، وهنا قرن صورة الغزل مع الطبيعة الخاصة بالركـب، فـذكر البقـر الوحشي، والرمال المتراكمة، ويرى في ذلك أن الليل قد طال وامتد، فيقول:

طاف الخيالُ علينا ليلةَ الوادي لآلِ أسماءَ لم يُلمِمْ لميعاد
أَنّى اِهتَدَيتَ لِرَكبٍ طالَ سَيرُهُمُ في سَبسَبٍ بَينَ دَكداكٍ وَأَعقادِ
يكلفون سُراها كلَّ يعملةٍ مثل المهاةِ إذا ما احتثَّها الحادي[3]

أما قصيدته التي يذكر فيها امتداد عمره، ومن شاهده من الملوك، يبين أنـه سوف تأتي قرون جمة بعده، وأن الشمس طالعة، والليل كاسف، وهنا كنايـة عـن

---

(1) الديوان ص٥٨.
(2) الديوان ص٥٩.
(3) الديوان ص٦٢.

فترات العمر، ونهاية الحياة، فأتى بلفظ الليل هنا للدلالة على نهاية العمر وأن لكل شيء نهاية، فيقول:

وَلَتَأتِيَن بَعدي قُرونٌ جَمَّةٌ   تَرعى مَخارِمَ أَيكَةٍ وَلَدودا
فَالشَمسُ طالِعَةٌ وَلَيلٌ كاسِفٌ   وَالنَجمُ تَجري أَنحُساً وَسُعودا[1]

أما قصيدته التي يصف فيها في أول كلامه سفر الأحبة، ثم يعود إلى وصف النياق، وكيف اتبع الظاعنين عينه، وينصرف بعدئذ إلى وصف فتيان بني أسد، ووصف فضائلهم والافتخار بهم، يتشوق إلى أيامه الماضية، ويتساءل فيها عن الليالي والأيام، وهل أنها راجعة أي هل تعود الأيام والليالي مرة ثانية، على الرغم من أن قومه وقوم سلمى متعاشرون، فيقول:

هَلِ اللَيالِيُ وَالأَيّامُ راجِعَةٌ   أَيّامُ نَحنُ وَسَلمى جيرَةٌ خُلُطُ[2]

إن هذه صورة الليل عند الأبرص، ولكنها صورة تعد باهته بعيدة كل البعد، فقد ذكرها مروراً سريعاً، فلم يقف كثيراً ولم يتأمل طويلاً كغيره من أقرانه الشعراء، وقرن هذه الصورة بالطبيعة والحب.

٩- الليل والقوم عند الحارث بن حلزة:

كان الحارث رزيناً محنكاً، وداهية مدرباً على طرق استعطاف الخواطر واستمالة الأهواء، يريد الغاية فيسير إليها على أقوام صراط، وأوضح طريق، حتى يدركها دون أن يتهور؛ ويفاجئه الخطر فيعمل لإزالته بحكمه ورباطة جأش دون أن يتضعضع[3].

---

(1) الديوان ص٦٩.

(2) الديوان ص ٩١.

(3) فؤاد البستاني: عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٨، ص (ط).

" والثابت أن الحارث كان قد تقدم به العمر يوم إنشاء المعلقة، مجاوزاً في ذلك عمرو بن كلثوم. وقد توفي نحو ٥٨٠م غير تارك إلى جانب المعلقة سوى شعر يسير لا يمكن التعويل عليه"(١).

إن صورة الليل عند الحارث بن حلزة تكاد تكون باهته عنده، فهو لم يذكرها إلا في بيت واحد من المعلقة، نظراً لما تميز به من دفاع عن قومه، وإبراز مكانتهم أمام التغلبيين.

" والموضوع الأساسي يدور حول الخصومة التي كانت بين قبلتي بكر وتغلب في الجاهلية"(٢).

ويتحدث عن ذكره لليل مبيِّناً أن قومه أجمعوا أمرهم بليل؛ لأن الليل مكان السكون، والهدوء، ففيه تُتَخذ الآراء والمواقف، سواء في حرب أو في سلام، فالشاعر هنا وضح أن قومه اتخذوا أمرهم بليل، وهنا نكَّر كلمة ليل من أجل الاستغراق، ففيه السرية التامة، والرأي السديد.

" وإنما خصَّ الليل لأنه وقت تتفرغ فيه الأذهان من الضوضاء والجلبة والاختلاط، أي لما أحكموا أمرهم بليل أصبحوا في تعبئة لما أحكموه في إسراج والخام وكلام"(٣).

" وفي ذلك تهيئة مثلى للقضية التي يود الدفاع عنها، فبنو تغلب يريدون الإساءة إلى البكريين الأبرياء، ينتحلون لهم الذنوب لإيقاظ العداوة والفتنة، فإذا

---

(١) جورج غريب: الشعر الملحمي تاريخه وأعلامه: ابن كلثوم ــ ابن حلزة ــ ابن شداد، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م، ص٣٦.

(٢) عبدالعزيز بنوي: شرح معلقتي طرفة بن العبد والحارث بن حلزة، الصدر لخدمات الطباعة، مصر، ط١، ١٩٨٩، ص ٥٧.

(٣) المعلقات العشر، شرح النحاس، ص٥٦٢-٥٦٣.

نشبت الحرب التي تدبرت الأراقم خطوطها في ظلمة الليل، وسمع لها ضجيج في الصباح، تكون تبعتها على التغلبيين"(١).

إذً فالجانب القومي كان مسيطراً عليه في معلقته، حتى حديثه عن ذكر صورة الليل في المعلقة، فيه ذكر عن قومه وعن اتخاذهم للآراء في وقت الليل فيقول:

أَجمَعوا أَمرَهُم بِلَيلٍ فَلَمّا　　　أَصبَحُوا أَصبَحَت لَهُم ضَوضاءُ(٢)

فالليل هنا يعنى الزمن الذي اجتمع فيه القوم لأمرٍ ما.

" ويبدو أن الحارث بن حلزة كان ذا شعور قبلي ضيق، لا يتعدى حدود بني يشكر، ولذا وجدناه ينطق بلسان قومه اليشكريين، صادقاً مع نفسه، ومع واقع قبيلة بكر التي تحولت بطونها إلى ما يشبه القبائل المستقلة، وما تبع ذلك أحياناً على مناصبة العداء والتبرؤ من التبعات"(٣).

يمكن أن تقول أن صورة الليل عند الحارث بن حلزة بعيدة كل البعد عن غيره من الشعراء، أو تكاد تكون منعدمة، ففي معلقته الفخر، والغزل، والحديث عن قومه، والدفاع عنهم، وحديثه عن أشخاص معيّنين كما تميز بالفخر، والحديث عن رحلته، وراحلته، ثم الحديث عن النزاع بين بكر وتغلب.

ويتحدث ايضاً موضحاً في إحدى قصائده التي يفخر فيها مبيناً قوة الرواحل التي يقتنيها قومه أن خيالها أشبه بليلة ظلماء، وقد اهتدى بهذه الراحلة القوية القادرة على المشي وأن قومه قد قطعوا غاية المكان فيقول:

طَرقَ الخَيالُ وَلا كَلَيلَةِ مُدلِجِ　　　سَدِكاً بِأَرحُلِنا وَلَم يَتَعَرَّجِ

(١) جورج غريب: الشعر الملحمي، ص٣٨-٣٩.

(٢) المعلقات العشر للنحاس، ص٥٦٢

(٣) عبدالعزيز نبوي: شرح معلقتي طرفة بن العبد، والحارث بن حلزة، ص٥٤.

أنّى اِهتَدَيتِ وكُنتِ غَيرَ رَجيلَةٍ   وَالقَومُ قَد قَطَعوا مِتانَ السَجسَجِ[1]

هذا ما توصلنا إليه من وصف لصورة الليل عند الحارث بن حلزة وهي صورة تكاد تكون معدومة كما بينّا من قبل.

وهنا تقول الدكتورة مي خليفة: إن في هذا البيت المفارقة المطروحة فالحارث قد اختلف مع عنترة، وامرئ القيس في حديث كل منهم عن وصفه لصورة الليل والاغتراب النفسي[2].

١٠- عمرو بن كلثوم

" رأس الطبقة السادسة من فحول الشعراء في الجاهلية عده ابن سلام الحجمي، وكان شاعراً، وفارساً، وهو أحد فتاك العرب ساد قومه بشجاعته ولسانه.

أما أخباره فلم يصلنا إلا النزر القليل، ومنه أن الشاعر قضى حياته مدافعاً عن قومه، مشاركاً إياهم في الحروب والغزوات، متنقلاً معهم كرّاً وفرّاً حتى وافته المنية. وأهم أخباره ثلاثة: انشاده لمعلقته مدافعاً عن قومه عند عمرو بن هند، وقتله لعمرو بن هند، وأسره"[3].

" ويبرز عمرو في قومه سيداً عملاقاً منذ شبابه، ويصبح له من بينهم شأن لا يغفل أو ينكر، من حيث شجاعته وبطولته، ويسهم بدور شجاعة فعال في الحروب التي نشبت بين قبيلته (تغلب) وبين (بكر) ويتم الصلح بناء على تحكيم عمرو بن هند في أي خلاف يمكن أن ينشب مرة أخرى بين القبليتين.

---

(1) لويس شيخو: شعراء النصرانية قبل الإسلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٦٧، ص٤١٩.

(2) الموقف النفسي عند شعراء المعلقات ص٣٥.

(3) ديوان عمرو بن كلثوم: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، تحقيق أميل بديع يعقوب، ص١٠-١١.

ومن هنا بدأت النعرة القبلية تأخذ سبيلها إلى نفس عمرو، من لهم المكانة العليا في السيدة بين الجاهليين من ناحية، ثم إحساسه بفرديته، وكيف أصبح علماً في قومه يتولى حروبهم وقيادتهم، وهو واحد من كبار مستشاريهم في أمورهم الحربية، وهو لم يزل يافعاً من ناحية أخرى"(١).

إن صورة الليل عند عمرو بن كلثوم مختفيه تماماً، نظراً لما تميز به الشاعر من مقدرة فائقة من فروسية وشجاعة في الحروب مع قومه، برزت هذه المكانة عنده، وعند قومه، بذكر أجداده، وانتصاراتهم، وركز في ذكره لفظ الأيام، واليوم مبيناً فيها أيام الحروب التي خاضها قومه مع الأعداء.

إذ يمكن أن نقول: إن عمر بن كلثوم شاعر شجاع، صاحب مواقف متعددة مع نفسه وقومه.

" ولشعر عمرو بن كلثوم، على قلته، قيمة تاريخية لا يستهان بها. فهو يفيدنا معلومات ثمينة عن حالة العرب أو بعضهم، إذ ذاك من حيث الدين والاجتماع بما فيه من العادات والصناعات وحتى الألعاب. أما من حيث الدين فإنه يشير إلى عادة نساء بعض العرب من الطواف حول الصنم والدواء، وإلى رقصهن الديني أيضاً، وأما من حيث العادات الاجتماعية يذكر دور النساء في الحرب، ومن الناحية التاريخية يذكر تاريخ القبيلة والانتصارات التي حققها قومه"(٢).

إذًا عمرو بن كلثوم شاعر وبطل وشجاع كرَّس همه في مدح القوم وانتصاراتهم، ومواقفهم البطولية، وقد خلت معلقته ونتاجه الشعري القليل الذي وصل إلينا من وصف لصورة الليل وذكرها، بل ذكر كما قلنا أيام قومه وانتصاراتهم.

---

(١) عبدالله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة العربية في العصر الجاهلي ص٨١.

(٢) فؤاد البستاني: عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة معلقتان ص (يو).

الثوابت والمتغيرات

وهذه الدراسة التي شغلنا فيها بالبحث عن صورة الليل عند شعراء المعلقات العشر، والتي اختلف الشعراء فيها من شاعر إلى آخر، فرأينا فيهم من كان مبدعاً في الوصف، ومنهم من كان عاشقاً، ومنهم من كان مهموماً، ومنهم من وصف الليل وفق رؤيته الخاصة.

إن صورة الليل تأخذ في التسلسل الذي تناوله الشعراء من وصف يمثل قاعدة منفردة عند كل منهم، على حسب رؤيته وظروفه، ومكانة الليل عنده في أسلوب واضح، وهي صورة عبارة عن استبطان ذاتي لقدرة الشاعر، ومدى ما قدمه من توافق، وهذا دليل على اعتماده في كثير من الأحيان في كشف الطبيعة، وما يدور فيها من حركة، وصوت، هدوء، وسكون، بالإضافة إلى الظروف التي مرَّ بها لاستجلاء هذا الموقف.

إن صورة الليل، والتي وضحناها انحصرت في ظروف بعض من الشعراء، والتي جعلتهم يبدعون من خلالها.

لعل اتخاذ صورة الليل عند شعراء المعلقات يمثل لنا طبيعة البيئة الجاهلية، وما يدور حولها من مواقف.

وقد نأخذ صورة الليل عند شعراء المعلقات في التسلسل في تناولهم لهذه الصورة، وهذا لا يمثل قاعدة تامة عندهم، فقد نرى تكاملها عند شاعر، واختفائها عند آخر، وإهمالها عند بعض منهم، وفيها نرى جوانب الذاتية عندهم، فلا غرابة في ذلك أن نرى في كثير من الأحيان الاتساع، والانكماش عندهم، فمنهم من مارس التجربة، ومرَّ بها بأشكالها المتنوعة، مبرزين لنا الصورة التي وصلت إلينا من خلال شعرهم.

وتعد الصورة بمثابة لوحة فنية، ولكن هذه الصورة تأخذ في البناء تارة، وفي التفكك تارة أخرى، ومن الطبيعي، أن يلاحظ على شعراء المعلقات أنهم وضحوا

الهدف المقصود عند كل منهم، من خلال ما ذكروه في دواوينهم مستخدمين ما آل إليهم من صور فنية، وفق رؤيتهم الخاصة.

إن صورة الليل عند امرئ القيس قد تكون متكاملة، ففيها تجسيد وتشخيص، وعقلانية، يخاطبة، ويحادثه، ويأمره، ويصادقه ويجعله حميماً، ومرة يجعله عدواً ينفر منه، ويتمنى زواله حتى يذهب عنه القلق، والتوتر النفسي عنده.

عمد امرؤ القيس إلى تشبيه الهموم بأستار سوداء كثيفة تحجب الضوء. وهذه الصورة فيها سواد مظلم وهي مقترنة بالليل في ظلمته وسواده.

يبرز امرؤ القيس إحساسه بوطأة الليل على نفسه، وهو يبرز الآلام، والهموم.

إن ليل امرئ القيس فيه رهبة وخوف، وتناول من خلال الظروف اليومية التي يعايشها أن جملاً قد جثم عليه بكلكله، فجعله في هول شديد.

يفقد امرؤ القيس الأمل في انجلاء هذا الليل.

أن النجوم عند امرئ القيس ربطت أو شدت إلى قمة الجبل بحبل قوي، وظلت ثابتة في مكانها لا تتحرك، ولكن هذه صورة المحب والعاشق.

صورة الليل عند امرئ القيس غطت جوانب الموقف عنده، ففيها البحر، والجبل، والسماء والنجوم، والحيوان، وكذلك الهول، والخوف، والقلق النفسي، والحب والعشق، والخيال، وهي صورة متميزة عند امرئ القيس؛ لأنها كشفت جوانب الحب عنده، ويكاد يختلف عن أقرانه الشعراء.

أما صورة الليل عند النابغة فإنها تمتاز بصفاء الديباجة، ووضوح الأسلوب، وقلة اللفظ، وقلة التكلف، والسبب في ذلك أن تهيأت له أسباب الشاعرية من حيث النشأة البدوية، ووفرة الجوانب الفنية عنده، وكذلك تنقله بين المناذرة والغساسنة، فاستوعب الصورة في جوانب مختلفة من قصائده، وكرّس هذا الوصف لصالحه ولظروفه الخاصة، التي مرَّ بها، وهي تهديد النعمان بن المنذر له، فكانت سبباً في

الاضطراب النفسي عنده، فكان في قلق، وحزن عميق. ففي قصيدته البائية، والتي يتحدث فيها عن آلامه، ومواقفه والتي مطلعها:

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيمَةَ ناصِبِ وَلَيلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ الكَواكِبِ

فيها الليل الطويل، والذي ثبتت نجومه، وظلت في مكانها، والتي شبهها بالغنم التي غاب عنها صاحبها؛ إما هو تاه عنها، وإما هي تاهت عنه، فظلت في مكانها ثابتة لا تتحول.

كما قرن النابغة صورة الليل بالحزن الذي ألم بصاحبه، وأحاط به من جميع الجوانب، لذا توهمه أنه ليل بطيء في سيرة كبطء الكواكب، وأنه طويل لكثرة ما يقاسيه من من الهموم، وكذلك حالة الليل غير مستقرة عنده؛ لأن الهم والخوف ملازمان له.

وفي قصيدته الرائية، والتي أولها:

عَوجوا فَحَيّوا لِنُعمٍ دُمنَةَ الدارِ ماذا تُحَيّونَ مِن نُؤيٍ وَأَحجارِ

وصف فيها نفسه بأنه قضى ليلة شديدة البرودة، بها أمطار كثيفة، ولم يجد مأوى سوى شجرة أرطأة من أجل أن يحتمي بها، ولكنه ظل في ألم شديد، وهذا وإن دل فإنما يدل على طول الليل عنده.

إذً فالصورة عند النابغة الذبياني يعتريها الهم والخوف، وأن الليل عنده طويل لا ينتهي.

أما عن صورة الليل عند طرفة بن العبد فإنها أخذت عنده في التسلسل من القوة إلى الضعف، فيها فلسفته في الحياة وفيها قرن صورة الليل مع الناقة، بأنها تسير بالليل والنهار، وأن الليل عنده لم يطل كما كان عند سابقيه.

كما قرن الليل بعدة جوانب منها: تحدث عنه صورة الليل وسمى الأعداء بأهل الليل، وكذلك تناول صورة الليل لوقت الشواب وأيضا تناول صورة الليل بخيال المحبوبة، وأخيراً شبه أصحابه الذين خذلوه وبعدوا عنه بالليلة البارحة.

في كل ترى غلبة الجانب الفلسفي عند طرفة بن العبد، وهي صورة منعكسة على نفسه في كل موقف من مواقف حياته، وتأتي صورة الليل عند زهير بن أبي سلمى تبعاً للمواقف التي مر بها، وكثيراً ما قرنها بالناقة في سيره وترحله، وفي مدائحه لهرم بن سنان والحارث بن عوف، كما قرن الليل أحياناً بالوقت، وكذلك لم نر قلقا عنده؛ لأنه شاعر سلام وحكمه، كما خلت الصورة عنده من المجون واللهو، وكانت الصورة مقدمة عنده في القول أي أننا نجد شيئاً مختلفا عنده، فيها صور نادرة للحياة، والمجتمع الذي يعيش فيه.

- أما الأعشى فإنه قرن صورة الليل بالناقة، وقال: إنها تشير في ليل موحش، في مكانه صار موطنا للجن، كما رسم صورة متكاملة للطبيعة بما فيها من حر شديد، وشتاء قارس، وقد ذكر الليل وهو لم يبرز القلق أو الخوف، بل وظفه في صور متعددة، مال إليها وذكرها، فجمع مع صورة الليل الكثير من الصفات، وقرنها بالمحبوبة.

- وتختلف الصورة عند عنترة بن شداد تماماً عند غيره من شعراء المعلقات، فكانت صادقة عنده، ممتزجة مع حياته التي تعتريها القوة، والحرب، والقتال، والدفاع عن القبيلة، والمبارزة، وكذلك قرن سنانه، ورمحه بالليل المظلم.

- أما عند لبيد بين ربيعة، فهو صورة مقترنة بالطبيعة، والوصف، والرحيل والظعائن، وبعتاب المحبوبة، وفيها ويتحدث عن الليل مبرزاً لهوه ومجونه ومسامراته ، كما أبرز فيها الألم ولوعة الفراق ، فهي صورة تختلف عن السابقين له من الشعراء، ولكن صورة الطبيعة كبيرة عنده مسيطرة على معظم ما ذكره من وصف للفظ الليل.

- وعند عبيد بن الأبرص نجد خلو الصورة تماماً من وصف الليل، فهو لم يقف طويلاً أمامها، بل يذكر صورة الليل في بعض من الأبيات وفي ثنايا القصائد،

وكأنه يمر عليها مروراً عابراً دون تأمل أو تعمق في هذا الوصف، إذًا فالصورة عنده تكاد تكون متقدمة عنده لما رأينا في شعره بعض الجوانب الخاصة به.

- أما الصورة عند عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة لم نر عندهما وصفًا لصورة الليل إلا النادر عند الحارث بن حلزة فقط، ذكرها في بيت واحد من معلقته، ولم يكن فيها تعمق. أما عمرو بن مكثوم فلم يذكرها مطلقاً، والسبب في ذلك أن كلاً منها كان سيداً عند قومه، ففرّغ جهدهما لمدح القوم، والحديث عن الانتصارات، وذكر أيامهم ومفاخرهم وسماتهم.

- إذًا يمكن أن نقول: تتكامل صورة الليل عند كل من امرئ القيس، والنابغة الذبياني، ولكن الاختلاف بينهما واضح، فهذا محب وعاشق وولهان، ومترف صاحب حالة نفسية هادئة بعيدة عن القلق النفسي والتوتر، وهذا يدل على ظروف الشاعر ونشأته لما فيها من رغد في العيش بالإضافة إلى شجاعته وقوته.

أما النابغة الذبياني فيسيطر على الليل عنده القلق والهم النفس على الرغم من اكتمالها، وهي نتيجة الظروف المؤلمة التي مرَّ بها نتيجة غضب النعمان بن المنذر عليه، فجعلته في قلق، وكانت صورة منعكسة عليه في حياته وبيئته، ويوضح فيها أن الخوف ألم به من جميع الجوانب، وأن ليله طويل لا ينتهي أبدًا، فهنا ترى الحالة النفسية قلقه عنده.

- وتكاد الصورة تتشابه عند كل من طرفة وزهير والأعشى وعنترة ولبيد، ولكن كل منهم حسب موقعه، وظروفه، فلم يقف كل منهم طويلاً أمام هذه الصورة؛ لأن كلاً منهم تميز بميزة عن غيره من الشعراء، فطرفة بن العبد غلب عليه الجانب الفلسفي، وقرن صورة الليل بالفلسفة التي كانت مسيطرة عليه، أما زهير فقرن صورة الليل بالناقة، وكذلك الأعشى إذ وصف الناقة في سيرها بالليل.

وجاءت الصورة عند عنترة مقترنة بقوته وشجاعته وسلاحه وجاءت صورة الليل عند لبيد بن ربيعة العامري مقترنة مع لهوه ومجونه، وأنه يقضي الليالي في السمر.

وتكاد تكون الصورة معدومة عند كل من عبيد بن الأبرص، والحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم نتيجة لما تميز كل منهم من سمات شخصية.

الألفاظ والتراكيب والصور:

وجاءت لفظة الليل عند شعراء المعلقات من خلال النصوص التي ذكرناها، ووقفنا عندها مليئة بالألفاظ والتراكيب، ظهرت فيها شخصية هؤلاء الشعراء، ففيها الحس، والحركة، والصوت، واللون، والرهبة، والألفة، وقد ذكر هؤلاء الشعراء وصف الليل أشبه بلوحة فنان مبدع، يستعيد ذكرياته، فجاءت غاية عن الروعة والهدوء.

- فامرؤ القيس وقف عند لفظة الليل قارنًا معها البحر والنجوم والظلام، والسواد، والصبح.

- أما النابغة فجاءت ألفاظه هادئة، يعتريها الخوف مثل قوله كالليل الذي هو مدركي – عازب همه – النجوم بآيب – ليلة شهباء – الظلام – الليل معتكر – معسراً – الإظلام – إظلام – مكفهراً –ليله حرة – ليل التمام..، كل هذه ألفاظ جاءت متوائمة مع نفسية النابغة الذبياني كشفت عن حالته النفسية.

أما طرفة بين العبد فجاءت الألفاظ عنه مرتبطة بالحياة والفلسفة، فذكر الليل والنهار كما أبرز رهبته من الليل، والليلة البارحة، وتجسيده لليالي على أنها شيء يليه، " ليست الليالي " فالحالة النفسية يعتريها القلق من خلال الألفاظ التي تناولها.

أما زهير بن أبي سلمى فجاءت ألفاظه كطبيعته المسالمة، فهو شاعر سلام وحكمة، فذكر الليلة بمعظم – حسرت عنه النجوم أضاء الصبح – الليلة البدر – جنوح الليل – ليل التمام – ذرى الليل – احمر النهار – ليلة سار لها هاد. كلها

ألفاظ تدل على مكانة الشاعر، وما اتسم به من مواقف شعرية نال بها مكانة عظيمة بين أقرانه الشعراء، فهو لم يشكُ همه إلى الليل، ولم يناجيه كما فعل غيره.

وجاءت الصورة عند الأعشى من خلال ألفاظ وتراكيب فيها الإحساس القوي والتحدي، والضخامة والقوة، فأتى بألفاظ: ظهر الترس – موحشه للجن – القيظ – طليح – البرق– الشعل – الليل سيابا – العشي – مجهَد – ليل وظلماتــه – ربــط صورة إرم وعاد بالليل النهار – بت الليل مرتفقا.

كل هذه الألفاظ تدل على الجو النفسي عنده الذي يعتريه الرهبة، فهو قــرن الليل بتحديد هذه الألفاظ.

أما عنترة بن شداد فجاءت الصورة منعكسة عنده نتيجة ظروفــه ومواقفــه وقوته. فذكر: الليل المظلم – الليل نار – الليل يقبض ظلمة الليل، والليــل مالــت كواكبه – الليل معتكر، كل هذه ألفاظ تدل على قوة عنترة بن شــداد، فيهــا القــوة والعنف والشدة، فانعكاس الصورة عند عنترة لم تكن من فراغ، وإنما جاءت نتيجة ما لاقاه الشاعر من ظروف قاسية.

ولفظة الليل عند لبيد بن ربيعة جاءت مسالمة عنده، فذكر: الليل ألبسها – نبل الليل صادقة– البرق– مصابح الشعيلة كلها ألفاظ فيها ليونة وسهولة، وقلــيلاً مــا تحوي القوة والشدة إلا في قوله: ليلة كفر النجوم غمامها– الظلام منبره– انحــسر الظلام– كم من ليلة فهو قوي وشجاع لم يؤثر القلق فيه.

أما عبيد بن الأبرص فجاءت الألفاظ عند موحية في جوانب متعددة ليس فيها عمق، فذكر لفظة: الليل مرهوب، إصباحي – أبيت الليل أرقبه– بهيم الليل – الغد– الصبح– الأمساء– ليلة الوادي ليل كاسف، كل هذه الألفاظ ليس فيها عمق، وإنمــا جاءت عرضية باهتة.

أما الألفاظ عند الحارث بن حلزة جاءت بعيدة عنده وقليلة، فلم يذكر لفظ الليل إلا مرة واحدة في معلقته، وكان الغرض منها وقت الفراغ "ليل"، أما في بقية الأبيات فكانت بعيدة كل البعد.

أخيراً انعدمت لفظة الليل عند عمر بن كلثوم، فجاءت بعيده تماماً منه، فقد ركز على ألفاظ أخرى مثل: اليوم، والأيام، وغداً، والصبح، وأصبحينا، كلها ألفاظ تدل على قوة الشاعر وانشغاله بجوانب أخرى، وهي الدفاع عن قومه ومن حسهم، وإبراز مكانتهم وانتصاراتهم.

إذًا جاءت الألفاظ وتقابلاتها عند شعراء المعلقات الجاهليات العشر منعكسة على كل منهم، لأن كل شاعر تناول هذه الصور من خلال الظروف التي يمر بها، وقتما بعث هذه الألفاظ من جانب القوة والضعف عند كل منهم مثل امرئ القيس والنابغة، وطرفه بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، ولبيد بن ربيعة، وجاءت ضعيفة عند بقيه الشعراء.

أما عن صورة الليل عند شعراء المعلقات فيمكن أن نقول: لم يكن الليل عند الجاهلي مجرد وعاء للوقت أو للزمن، بل كان فعالاً متسماً بالحيوية والنشاط والحركة، ومن خلال هذا الليل نجد وسائل الرهبة والألفة والشكوى والحنين، بحيث لو لم نجد هذه الوسائل في الليل لوجدنا بلا قيمة.

لذا كان الليل عند الجاهليين ذا صورة نفسية تنبض بالحياة، بما فيها من حركة وتدافع سواء كان على الفرد، أو على الجماعة، ومن خلالها نجد براعة الشاعر، وقدرته على الإبداع الفني، حيث يبرز براعته ومواقفه، وجاءت صورة الليل متعددة متنوعة عند شعراء المعلقات، وكانت عند امرئ القيس تطول تارة، وتقصر أخرى، ويوضح لنا أنه لديه المقدرة في ذلك؛ أعني الطول والقصر، وكانت الصورة عنده حيه نابضة لما يعتريها من عشق وحب.

أما عند النابغة الذبياني فإن الليل بطيء جداً لا ينتهي بتقاعس وتكاسل، وعند الأعشى أشبه ببيوت حصينه، وعند عنترة يبدو الليل معتكراً أي شديد السواد، أما عند زهير ولبيد فتكاد تكون الصورة هادئة تماماً، ولحظنا انعدامها عند كل من عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة.

إذاً فكان الليل يضفي على جو الذكريات مسحة ورقة وعذوبة، تتألق خلالها مشاعر إنسانية تنعكس على الشعراء وشخصياتهم من خلال إحساس نفسي يدور الشاعر في فلكه.

مصادر البحث ومراجعه

أولاً: المصادر

- الأب لويس شيخو اليسوعي: شعراء النصرانية قبل الإسلام، دار المشرق، بيروت، ط٣، ١٩٦٧.
- الأعشى: ديوانه، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن الأنباري: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، دار المعارف مصر ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م تحقيق عبدالسلام هارون.
- أبوجعفر النحاس شرح القصائد التسع المشهورات، دار الحرية، بغداد، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٢م تحقيق أحمد خطاب.
- أحمد الأمين الشنقيطي: شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- امرؤ القيس: ديوانه، دار المعارف، مصر، ط٣ ١٩٦٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط٣ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق فخر الدين قباوة.
- زهير بن أبي سلمى: ديوانه، صنعة ثعلب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٨١م
- سليمان العطار: المعلقات السبع شرح معاصر وتبسيط للشروح القديمة، مصر، دار الثقافية للنشر والتوزيع، ط١ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- طرفة بن العبد: ديوانه شرح الأعلم الشنتمري، ويليه طائفة من الشعر المنسوب إليه، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٤٥هـ - ١٩٧٥م تحقيق لطفي الصقال - درية الخطيب.
- عبيد بن الأبرص: ديوانه، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- عمرو بن كلثوم: ديوانه، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت ــ جمع و تحقيق أميل بديع يعفوب.
- عنترة بن شداد: ديوانه، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦٤، ط١، تحقيق محمد سعيد مولوي.
- لبيد بن ربيعة العامري: شرح ديوان لبيد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٢، تحقيق إحسان عباس.
- محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، مطبعة المدني، مصر، د.ت ــ تحقيق محمود محمد شاكر.
- المرزباني: الموشح، دار الفكر العربي، مصر، د.ت.تحقيق علي البيجاوي.
- النابغة الذبياني: ديوانه، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د.ت تحقيق محمد الطاهر عاشور.

ثانيا: الدوريات

- مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب الموصل ج١، ع٤، ١٩٧٢ مقال بعنوان الليل في شعر الجاهلي بقلم جليل صالح العطية.
- مجلة الدراسات اللغوية الصادرة عن مركز الملك فيصل للدراسات اللغوية، ج٢، ع١ محرم ربيع الأول ١٤٢١هـ - يونيه ٢٠٠٠ مقال بعنوان الدلالة الإيحائية لطائفة من ألفاظ القرآن الكريم، بقلم كاصد اليزيدي.

ثالثا: المراجع

- أحمد أبو الأنوار: الشعر الجاهلي مادته الفكرية، وطبيعته الفنية، مطبعة قاصد خير، مصر، د.ت
- إيليا سليم الحاوي: النابغة سياسته، وفنه، نفسيته، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٢ ١٩٨١م

- بهى الدين زياد: الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه الفنية، دار المعارف، مصر، د.ت
- جلال الخياط: الشعر والزمن، دار الحرية، بغداد، ١٣٩٥هـ
- جورج غريب: الشعر الملحمي وأعلامه ابن كلثوم، ابن حلزة، ابن شداد، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥م.
- حسني عبد الجليل يوسف: الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، د.ت.
- حسني عبدالجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا وفنون، نصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، ط١ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م
- خالد محمد الزواوي: الصورة الفنية عند النابغة الذبياني، دار نوبار للطباعة، مصر، ط١، ١٩٩٢م
- سعد إسماعيل شلبي: الأصول الفنية للشعر الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر، مصر ١٩٨٢م.
- سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي، مطبعة مصر، ١٩٤٥م.
- شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط٦، د.ت.
- صلاح الدين الهادي: أمراء الشعر في العصر الجاهلي، بيئاتهم، حياتهم، فنهم، مكتبة الشباب، مصر، د.ت.
- عبدالرحمن بدوي: الزمان اللاوجودي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٤٥م.
- عبدالرحمن بدوي: الموت والعبقرية، دار القلم، بيروت، د.ت.
- عبدالعزيز نبوي: شرح معلقتي طرفة بن العبد والحارث بن حلزة، الصدر لخدمات الطباعة، مصر، ط١، ١٩٨٦م.

- عبدالعظيم علي قناوي: الوصف في العصر الجاهلي، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط١، ١٩٤٩م.
- عبدالله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة العربية، العصر الجاهلي، دار اللواء للطباعة والنشر، مصر، ١٩٨٢م.
- عز الدين إسماعيل: الفن والإنسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ت.
- عفت الشرقاوي: دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٩م.
- علي شلق: النابغة الذبياني، الصورة، النسق، النباهة، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- عمر الدسوقي: النابغة الذبياني، مصر، دار الحمام للطباعة، مصر، ط٦، ١٩٧٥م.
- فؤاد البستاني: عمرو بن كلثوم الحارث بن حلزة "المعلقتان"، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٢٩م.
- لانسون ماييه: منهج البحث في الأدب واللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢، ترجمة محمد مندور.
- محمد أبو موسى: قراءة في الأدب القديم، دار الثقافة العربية للطباعة والنشر، مصر، ط١، ١٩٧١.
- محمد صالح سمك: أمير الشعراء في العصر القديم، مطبعة العلوم، ط١، ١٩٣٢.
- محمد علي الهاشمي: طرفة بن العبد حياته وشعره، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٥.
- مصطفى ناصف: دراسة الأدب العربي، دار الأندلس، مصر، ط٣، ١٩٧١.

- مصطفى ناصف: صوت الشاعر القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٢.
- مي يوسف خليف: الموقف النفسي عند شعراء المعلقات، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، ط١، د.ت.
- يوسف خليف : مناهج البحث الأدبي ــ دار الثقافة للنشر والتوزيع ــ مصر ط ١٩٩٧.
- يوسف رشيد عطا الله، ساروفيم فكتور: تاريخ الآداب العربية، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.